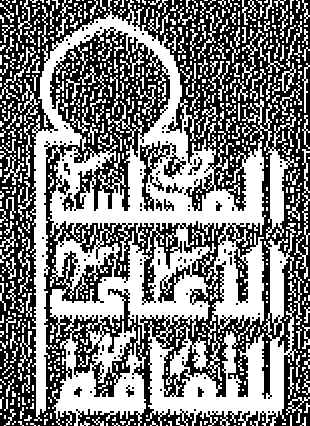
الأدب البرتغالى

تاريخه و تطوره

محمود على مكى



المجلس الأعلى للثقافة

الأدب البرتغالي

تاريخه وتطوره

د . محمود على مكى



٢٠٠٢

المجلس الأعلى للثقافة

اسم الكتاب : الأدب البرتغالى
اسم المؤلف : د . محمود على مكى
الطبعة : الأولى – القاهرة ٢٠٠٢م .

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤
El Gabalaya St. Opera House. El Gezira, Cairo
Tel : 7352396 **Fax :** 7358084 **E. Mail :** asfour @ onebox. com

فهرس

١ – توطئة تاريخية	٥
٢ – الأدب البرتغالى : النشأة والبدايات	
من القرن الثالث عشر حتى نهاية السادس عشرة	٨
الشعر	٨
النثر	١٧
٣ – عصر الركود :	
القرنان السابع عشر والثامن عشر :	٢٣
الشعر	٢٥
النثر	٣٠
٤ – الرومانسية والواقعية :	
القرن التاسع عشر والعشرون	٣٦
الشعر	٣٧
النثر	٤٨

الأدب البرتغالى

١ - توطئة تاريخية :

الاسم القديم للبرتغال هو لوزيتانيا Lusitania (لجدانية فى المصادر الأندلسية) ، وهى تمثل شريطاً مستطيلاً على ساحل المحيط الأطلنطى فى غرب شبه جزيرة إيبريا ، وتحدها إسبانيا من الشمال والشرق ، وكان يقطن هذه البلاد فى تاريخها القديم شعب كلتى إيبرى هو مجموعة من القبائل الشديدة المراس التى قاومت الاحتلال القرطاجى ثم الرومانى ، غير أن الرومان استطاعوا أن يفرضوا سيطرتهم عليها منذ القرن الثالث قبل ميلاد المسيح ، وعلى مدى نحو خمسة قرون أصبحت لوزيتانيا إحدى مقاطعات الامبراطورية الرومانية ، واتخذ شعبها اللاتينية لغة له ، ومع مرور الزمن تحولت إلى لهجة دارجة هى برتغالية اليوم ، وكانت عاصمة هذه المقاطعة هى مدينة ماردة Mérido التى تتبع إسبانيا اليوم وتضم الجزء الجنوبى من البرتغال ، أما الجزء الشمالى فقد كان تابعاً لمقاطعة جليقية Galicia ، وعاصمتها مدينة براغا Braga (براقرة فى المصادر الأندلسية) ، وفى أوائل القرن الخامس الميلادى قضت هجمات البرابرة على الامبراطورية الرومانية ، وأعقب ذلك احتلال القوط الغربيين لشبه جزيرة إيبريا ، فحكموها على مدى ثلاثة قرون حتى الفتح العربى سنة ٧١١ للميلاد ، فأضبحت البرتغال إحدى ولايات ، غرب الأندلس ، طوال أيام الإمارة والخلافة الأموية . وبعد سقوط الخلافة فى أعقاب الفتنة البربرية فى سنة ١٠٣١ وقيام دول الطوائف توزعت البرتغال بين ثلاث ممالك : مملكة ليون التى تبعتها الأقاليم الشمالية المتاخمة لجليقية ، ودولة بنى الأوحس وعاصمتها مدينة بطليوس Badajoz (فى إسبانيا اليوم) وتضم الأقاليم الوسطى ، وأما جنوب البرتغال فكان تابعاً لمملكة بنى عباد بإشبيلية . ولما دخل المرابطون الأندلس فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى

آلت إليهم المنطقتان الوسطى والجنوبية . وظل الأمر كذلك على عهد الموحدين الذين ورثوا دولة المرابطين منذ منتصف القرن الثانى عشر ، وإن تمكنت مملكة ليون المسيحية من الاستيلاء على عدد متزايد من الحواضر التى كانت فى حوزة المسلمين فى المنطقة الوسطى منذ أوائل القرن الثالث عشر . ولم يأت منتصف هذا القرن حتى آل ما كان بأيدى المسلمين من أرض البرتغال إلى مملكة قشتالة وليون أو إلى حركة المقاومة المسيحية التى نهض بها أهل البلاد ممهدين بها إلى إنشاء مملكة مستقلة على أنقاض دولة المسلمين فى الأندلس .

ويعود أصل هذه المملكة التى أصبحت تدعى البرتغال إلى اثنين من النبلاء الفرنسيين المشاركين فى الحملة الصليبية التى قادها ملك قشتالة ألفونسو السادس واستولى بها على طليطلة (سنة ١٠٨) ، وهما ريمند Raimundo وإنريكي Henrique فقد زوج الملك هذين النبيلين من ابنتيه أوراكا وتيريا اعترافًا بجميلهما ، ومنح ثانيهما لقب ، قومس (كونت) البرتغال ، مقطعًا إياه الشريط الشمالى وعاصمة مدينة أوبورتو oporto ، ثم خلف هذا الكونت ابنه ألفونسو إنريكز Alfonso Henriquez (الذى يدعوه المسلمين ابن الريق) ، فنادى بنفسه ملكاً مستقلاً للبرتغال فى سنة ١١٤٣ ، وذلك بعد أن انتزع من المسلمين شنترين Santarem ولشبوت Lisboa ويابرة Evora وباجة Beja أى المناطق الوسطى ، وأتم ألفونسو الثالث فى القرن التالى الاستلاء على المناطق الجنوبية التى مازالت تحمل اسمها العربى ، الغرب Algarve ، ويرد الفضل فى تنظيم المملكة وتحويلها إلى قوة بحرية كبرى وإنشاء جامعة قلمريّة Calmbra إلى الملك ديونيس Dionis (١٢٧٩ – ١٣٢٥) وفى سنة ١٣٨٥ انتهى حكم الأسرة البورغونية ، فحاول ملك قشتالة خوان الأول ضم البرتغال إلى مملكتة ، ولكن البرتغاليين أحرزوا على القشتاليين انتصاراً كبيراً فى معركة ألخوباروتا Aljubarrota (سنة ١٣٨٥) وأعقب ذلك مناداتهم بملك عليهم كان بطل المعركة المذكورة ، وتلقب هذا بجوان

الأول ، وهو رأس أسرة مالكة جديدة معروفة باسم Avis ، وظل حكم هذه الأسرة نحو قرنين إلى أن انتهت بمقتل آخر ملوكهم سباتيان فى معركة ، وادى المخازن ، قرب القصر الكبير فى المغرب على أيدى المجاهدين المغاربة سنة ١٥٧٨ . وخلال حكم هذه الأسرة كان التوسع الكبير للبرتغال فيما وراء البحار : البرازيل فى أمريكا الجنوبية وغينيا وأنجولا وموزمبيق فى أفريقيا بالإضافة إلى مستوطنات فى آسيا مثل جوا فى الهند وما كاو فى الصين . وفى سنة ١٥٨٠ تمكن فيليب الثانى ملك إسبانيا من ضم البرتغال إلى ملكه ، وظل الحكم الإسبانى حتى سنة ١٦٤٠ حين ثار البرتغاليون واستردوا استقلالهم بعد حرب مريرة أعانهم فيها الفرنسيون والإنجليز ، ونادوا بملك جديد تم من سلالة ملوكهم القدماء ، هو چوان الرابع . ومنذ سنة ١٧٠٣ انعقد حلف بين البرتغال وإنجلترا أصبحت هذه الدولة بمقتضاه أشبه بحامية للبرتغال وضامنة للحفاظ على مستعمراتها الواسعة فيما وراء البحار . وخلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر وفى ظل الملك جوزيه الأول فرض وزيره بومبال Pombal على البلاد حكما دكتاتوريا مستنيراً حقق فيه عدداً من الإصلاحات من بينها فيما يتصل بالثقافة إنشاء المجمع اللغوى البرتغالى . ولكن الملكة ماريا الأولى ابنة جوزيه وخليفته طردت وزير أبيها ونفته . وفى سنة ١٨٠٨ احتل نابوليون بونابرت البرتغال ، واضطر الأمير الوصى على العرش للفرار إلى البرازيل حيث نُصِّب ملكاً فى المنفى باسم جوان السادس ، وبعد جلاء الفرنسيين عاد إلى البرتغال تاركاً ابنه بدرو نائبًا له فى البرازيل فنادى به أهل البلاد امبراطوراً عليهم فى سنة ١٨٢٠ ، وتبع وذلك استقلال البرازيل وانفصالها عن الحكم البرتغالى (فى سنة ١٨٢٢) . أما البرتغال فقد نشبت فيها حرب أهلية بين سنتى ١٨٢٦ و ١٨٣٣ بسبب النزاع على العرش . وبعد فترة هدوء استمرت فى عهد الملكين بدرو الخامس ولويس الأول عادت الأمور إلى الاضطراب ، وأنتهى الأمر باغتيال الملك وولى عهده فى ١٩٠٨ ، وأعلنت الجمهورية فى ١٩١٠ ، ثم

تحول نظام الحكم إلى دكتاتورية عسكرية . وفى سنة ١٩٣٣ قبض على مقاليد الحكم الدكتاتور أوليفيرا سالازار الذى تحالف مع دكتاتور إسبانيا الجنرال فرانكو منذ سنة ١٩٤٢ حينما أعلن الحاكمان مايسمى بالكتلة الإيبيرية . وفى أوائل السبعينيات بعد وفاة سالازار أعلنت نهاية الدكتاتورية العسكرية ، وأجريت انتخابات حرة ، وأصبح الحكم قائماً على تعدد الأحزاب فى ظل نظام ديمقراطى .

٢ - الأدب البرتغالى : النشأة والبدايات :

من القرن الثالث عشر حتى نهاية السادس عشر :

اللغة البرتغالية - مثل أخواتها المشتقة من اللاتينية : الفرنسية والإيطالية والإسبانية - هى اللهجة التى كان يتحدث بها العامة من سكان البلاد ، إلا أن الأسبانية والبرتغالية هما أكثر هذه اللغات تأثراً بالعربية ، فقد ولدتا وتطورتا فى ظل الوجود العربى الإسلامى فى شبه الجزيرة ، ولهذا فقد دخلتهما آلاف من الألفاظ والتعابير العربية ، بل إن البرتغالية - بحكم انعزاها وضآلة مالحقها من التطور - كانت أشد من الإسبانية احتفاظاً بالصور التى انتقلت بها إليها تلك الألفاظ والتعابير . وقد انعكست هذه الظاهرة على الأدب ، فقد تلقى فى نشأته الأولى من التأثيرات العربية فى روحه وموضوعاته وطرق تعبيره ماكان سمة مميزة بارزة لاتخطئها العين . وسوف يكون حديثنا عن مولد الأدب البرتغالى وبداياته موزعاً على الشعر بأنواعه : الغنائى والمسرحى والملحمى ، ثم النثر فى مختلف صوره .

الشعر :

كان الشعر الغنائى هو أسبق الأنواع الشعرية فى الظهور منذ القرن الثالث عشر فقد نظم الملك القشتالى ألفونسو العاشر الملقب بالحكيم (ت ١٢٨٤) ديوانه

المعروف بأغانى السيدة مريم العذراء Las Cantigas de Santa Maria باللغة المسماة « الجليقية البرتغالية Galaico - Portugués » وهى مجموعة من القصائد فى مديح العذراء مريم وذكر معجزاتها . وأما الشعر البرتغالى الخالص فأقدم نماذجه التى وصلت إلينا هى القصائد الغنائية التى تدعى Cancioneiros وقد احتفظت بها ثلاث مخطوطات أهمها المعروفة باسم مجموعة أجودا Ajuda فى لشبونة . ومحتوى هذه المخطوطات يتوزع على ثلاثة موضوعات : أغانى الصداقة Cantigas de amigo وأغانى الحب Cant de amor والأغانى الهجائية Cant. de es Cárnio . وأغانى الموضوع الأول تتألف من مقطوعات يكون مطلع المقطوعة الثانية منها هو آخر أبيات المقطوعة الأولى ، وكل مقطوعة تنتهى ببيت تغنيه الجوقة غناءً جماعياً ، وهو الذى يدعى دوراً retornada وأما الموضوع فإن هذه الأغانى تكون على ألسنة نساء عاشقات يبكين محبيهن وتحكى فيه الفتاة ماتلاقيه من انتظار الحبيب وهجره والشوق إليه والخوف من خيانته والحزن على فقده والغيرة عليه ، ويعبر عن الحبيب دائما بلفظ « الغزال » ، وكثيراً ما تكون هذه الأغانى فى صيغة مناجيات ومحاورات هى فى الغالب بين الفتاة وأمها ، كما تشتمل أيضاً على وصف لمشاهد الطبيعة التى يدور فيها اللقاء . ومن المشاهد المألوفة فى هذا الشعر مشهد السفينة التى تحمل الحبيب بعيداً عن عاشقته (barcoralas) . وهناك نوع من تلك الأغانى يدعى bailias وهى التى تصاحب الرقصات الجماعية ، ونوع آخر يدعى أغانى الحجيج cant de romerias وهى التى تؤديها جماعات الحجاج الذين يقومون بزيارة مشاهد القديسين فى مواسم معينة ، ثم الأغانى الرعوية pestorelas ، وفيها نجد الفتاة الريفية أو الراعية تلتقى صدفة بسيد نبيل يكون أميراً أو فارساً ويدور بينهما حوار يفضى فيه الرجل للفتاة بحبه وتسمى هذه الأغانى أيضا « جياليّات serranillas »

والنوع الثانى من هذا الشعر الغنائى هو الذى يدعى أغانى الحب ، وهنا نجد بدلاً من المرأة العاشقة الرجل الذى يتذلل للحبيبة ويضع نفسه فى خدمتها ، وهى

أغانٍ متأثرة بشعر التروبا دور الذى كان ينظمه شعراء بروڤانس (جنوب فرنسا) ، وكان هؤلاء الشعراء الجوالون يفدون على بلاطات الملوك والأمراء فى شبه جزيرة إيبريا . على أن الأغانى البرتغالية لم تكن إلا صدىً باهتاً لايقارن بالغنى العاطفى الذى نجده فى الشعراء البروتغاليين .

وأما النوع الثالث وهو الأغانى الهجائية التى كانت تدعى أيضاً cant de mal - dizer فهى أيضا تقليد لقصائد التروبادور التى تسمى sirventés ولاسيما النوع الذى كانت موضوعاته متعلقة بحياة الشاعر الخاصة بما فيها من تجاوزات سواء فى شرب الخمر أو فى الإفراط فى اللذات الجسدية .

ويلاحظ فى هذه الأشعار ولاسيما فيما يدعى بقصائد الصداقة أنها تكاد تكون محاكاة لشعر الغزل الأندلسى ، وبخاصة الموشحات سواء فى بنيتها الدورية أو فى الموضوعات التى تتناولها أو فى تعابيرها وتقاليدها الشعرية . وجميع هذه القصائد منسوبة لشعراء لانعرف عن سيرهم إلا القليل . ومنهم شعراء جوالون محترفون jograis ، وبعضهم من رجال الكنيسة ، ومنهم من كانوا يتولون مناصب رفيعة ، نخص بالذكر من بينهم Gongalotanes de Vinhal الذى اشترك فى حصار ألفونسو العاشر مدينة إشبيلية المسلمة (سنة ١٢٤٨) ومن أجل حسن بلائه منحه الملك لقباً تشريفيا ، João soares coelho الذى قام بدوركبير فى فتح منطقة « الغرب Algarve » وانتزاعها من أيدى المسلمين . وأكبر قدر من القصائد (١٣٨ قصيدة) منسوبة إلى الملك البرتغالى Dinis نفسه (توفى سنة ١٣٢٥) وقد أثبت فيها موهبته الشعرية الأصيلة ومكانته الرفيعة ، ولاسيما فى معالجة الموضوعات الشعبية ، كما كان من أبرع من صاغوا « أغانى الحب » والمجموعة التى تلى السابقة كثرة (٥٦ قصيدة) هى المنسوبة لابن الملك ديديى تميرا الشرعى ألفونسو سانتشيس Alfonso sanches (توفى ١٣٢٩) وأما الشعر

الذى نظمة الشعراء الجوالون المحترفون فهو أكثر تصويراً للفولكلور الشعبى الذى نبع منه .

وخلال القرن السادس عشر ظهر عدد من الشعراء الغنائيين يعدون البداية الحقيقية لهذا النوع من الشعراء كان أولهـم ســادى ميـراندا Sa de Miranda (١٤٨١ - ١٥٥٨) ، وهو أحـد النبلاء الذين كـانوا على صلة وثيقـة بالبـلاط الملكى ، وهو يمثل تأثر الشعر البرتغالى بشعر عصر النهضـة التى كانت إيطالياً مـركزها . وكـان قد رحل إلى إيطاليا فى ١٥٢١ حيث عـرف الأشكال الشعـرية الجديدة ، وحينما عاد بعد خمس سنوات أصبح مبشراً بالشعر الجديد على الطريقة الإيطالية مستخدماً البحر ذا الأحد عشر مقطعاً . ومقطوعاته eglogas التى تحمل عنـوان Alexo وسونيتاته هى أول الأمثلة البرتغالية للنمط الجديد . وقد ألف أيضا مسرحية نثرية بعنوان « الأجانب Os Estrangeiros » على طريقة أديب عصر النهضة الإيطالى أريوستو Ariosto (١٤٧٤ - ١٥٣٠) ، وعلى الرغم من أنه كان يحظى بتقدير البلاط فإننا نراه فجأة يهجر هذه الحياة ويعتزل فى أملاكه فى منطقة وادى نهر مينيو الأعلى Alto Minho حيث يمارس الحياة فلاحًا غنيًا . وظل مع ذلك مـواصلاً لنشاطه الأدبى المتمثل فى مكاتبـاته لأدباء عصـره وفى شعره الذى يعكس ضيقه وحزنه المتزايد لما كان يراه من تفكك المجتمع البرتغالى وانهيار القيم فيه بسبب التوسع الإستعمارى فيما وراء البحار ، وهو فى هذا الشعر ينظر فى غـضب وأسف إلى الوراء ليسـترجع فى حنين ذكـريات ذلك المجـتمع البسيط الذى كان الإنسان يقنع فيه بحياة ريفية سعيدة بسيطة . وفى قصيدته الرعـوية بعنوان Basto يقدم لنا حواراً طويلاً بين راعيين الأول حريص على مصلحته الفردية الأنانية والآخر ملتزم بقضايا مجتمعه . أما رسائله Cartas فنرى فيها هجاءه ونقده لمظاهر الفساد التى كان يرصدها فى مـجتمعه : فساد القضاء ونفاق رجال البلاط وخواء رجال الكنيسة وبطرهـم وانهيار القيم الخلقية فى المجتمع

كله . وهو فى الجملة يعد ثانى شخصية أدبية كبيرة فى عصره بعد خيل فيسنتى Gil Vicente الذى سيأتى الكلام عنه .

ومن معاصرى سادى ميراندا وهو أيضا من رواد الشعر الغنائى الجديد الشاعر والقصاص برنارديم ريبيرو Bernardim Ribeiro (١٤٨٢ - ١٥٥٢) ، وكان متصلا بالبلاط الملكى ولهذا فقد أدرجت مجموعة كبيرة من شعره فى الديوان الكبير Cancioneiro General (١٥١٦) ويبدو أن ريبيرو كان يهوديا اعتنق المسيحية ، وذلك لأن فى أسلوبه وصوره مايشى بذلك . وله مجموعة أخرى من القصائد ورواية عنوانها « كتاب الوصيفة والفتاة e Livro de menina Moça تم نشرها بعد وفاته سنة ١٥٥٤ . وريبيرو من أكثر الشعراء تأثراً ببترارکا ولا سيما فى أسلوبه فى الحوار الغرامى بين العاشقين ، غير أنه كان لايرى فى الحب مجرد موضوع أدبى ، وإنما قوة حيوية تبرر حياة الإنسان وتجعل معنى لوجوده . ويبدو ذلك جليا فى روايته التى أشرنا إليها ، إذ يصور مايحدثه الحب فى نفوس العاشقين من رغبات لايمكن أن تتحقق وتكون فيها حياة المحبين سلسلة من الآلام . وربما كان لنا أن نربط بين مفهومه للحب وآثاره وبين ماكتبه ابن حزم القرطبى فى « طوق الحمامة » كذلك يمكن أن نرى فى الرواية بذرة مايعرف فى الأدب البرتغالى على مر العصور بـ « الحنين المغرق فى الحزن saudade . ومشاهد الطبيعة فى الرواية بما فيها من حسية عارمة تعين على تعميق مشاعر الألم لدى شخصيات الرواية . وفى أسلوبه من الرقة والإيقاع الموسيقى المحكم مايجعل الرواية رغم نثريتها أشبه بأغانى الحب الرعوية eglogas . و يكاد ريبيرو ينفرد بهذه الخاصية بين سائر مؤلفى الأدب الروائى الأوربى المعاصر له .

وممّن تابع سادى ميراندا فى مذهبه الشعرى أنتونيو فيريرا Antonio Ferreira (١٥٢٨ - ١٥٦٩) ، وكان قد بدأ دراسة القانون فى جامعة قلمرية

Coimbra حيث تتلمذ على عالم الإنسانيات ديوغو دى تيڤى ، وأصبح وهو فى الثامنة والعشرين قاضياً فى محكمة لشبونة . ولم يمتد به العمر إذ توفى فى الوباء الذى أصاب البلاد فى ١٥٦٩ . ونشر أشعاره بعد وفاته ابنه سنة ١٥٩٨ بعنوان « قصائد برتغالية Poemas Lusitanos » . وربما كان فيريرا أبرز الشعراء الذين رحبوا بالاتجاه الجديد الذى تزعمه سادى ميراندا والذى نادى بأن ينظم الشعر بالبرتغالية لاباللاتينية ولابالإسبانية ، وكان متشرباً لمبادئ الكلاسيكية ومثلها ، وهو يمثل رجل النهضة ، وهو نمط لم يكن آنذاك شائعاً فى شبه جزيرة إيبريا . وفى شعره يحكِّم العقل المتزن الهادى ، ولهذا فقد اتسم بالوضوح إذ كان يخاطب عقل القارىء كما يخاطب مشاعره . ومثله العليا فى الكتابة ڤرچيل وهوراس ، والشكل الذى يرتضيه هو الكلاسيكى فى القصيدة ذات الطابع الملحمى وفى الرثاء والمقطوعة الهجائية epigrama وفى الرسالة . صحيح أنه نظم كذلك سونيتات على طريقة بترارِكا ولكنه كان فيها أقل توفيقاً . وربما كان خير إنتاجه هو رسائله ، كما دان بشهرته لمسرحيته A Castro وهى عمل درامى فى خمسة فصول على الطريقة الإغريقية القديمة بقواف مرسلة Blank Verse وبمصاحبة الجوقة . والموضوع مأخوذ من التاريخ البرتغالى : غرام الأمير دوم بدرو Dom pedro بإينيس دى كاسترو ines / de castro ومصرعها الذى قضت به مصلحة الدولة بأمرا الملك ألفونسو الرابع والد الأمير . ولعل فيريرا فى النهاية هو الوحيد الذي حاول أن يكتب المأساة الكلاسيكية بين مؤلفى إسبانيا والبرتغال . ومن تلاميذ ميراندا أيضاً ديوغو برناردس Diogo Bernardes (١٥٣٠ - ١٦٠٥) وهو شاعر لا نكاد نعرف عن نشأته شيئا، ولكننا نراه فى سنة ١٥٧٦ عضواً فى سفارة أرسلها الملك البرتغالى سباستيان إلى مدريد . وفى سنة ١٥٧٨ رافق هذا الملك فى حملته ضد المغرب ، وهى التى انتهت بالهزيمة الساحقة التى منى بها الجيش البرتغالى وقتل فيها الملك سباستيان فى وقعة وادى المخازن (سنة ١٥٧٨) ، وأخذ

برناردس أسيراً في القصر الكبير ، وبقى في أسر المغاربة حتى تم فداؤه في ١٥٨٢ وعاد إلي خدمة البلاط ، فتقرر له مرتب حتى سنة ١٥٩٣ . أما شعر برناردس فقد كان يجرى على نهج أستاذه سارى ميراندا على الطريقتين التقليدية والإيطالية الجديدة . ويعد مع كاموينس أشهر ناظمى السونيتات في جيله ، وأدى ذلك إلى أن جامعى الشعر أدخلو كثيراً من شعره في شعركاموينس . وفى سنة ١٥٩٤ نشر مجموعته الشعرية فى مديح المسيح Ao Bom Jesus وكثير من مقطوعاته كان مما نظمة أثناء أسره في المغرب . وفي سنة ١٥٩٦ نشر مجموعتين أخريين تشتملان علي أشعاره الأولى فى الحب .

هذا عن الشعر الغنائى ، وأما الشعر المسرحى فتبرز فى ميدانه شخصية خيل فيسنتى Gil Vicente (١٤٧٠ - ١٥٣٦) الذى تتنازعه إسبانيا والبرتغال ، إذ كان يكتب بلغتى البلدين ، وهو يعد أكبر الشعراء المسرحيين الأوربيين قبل شيكسبير ، ولم يكن عيد يحتفل به فى البرتغال بين سنتى ١٥٠٢ و ١٥٣٦ بغير أن يتضمن تقديم إحدى مسرحياته فيه . وأول أعماله « مونولوج البقّار Monologs do Vaqueiro » وهو من تلك المسرحيات الرعوية الى كان يكتبها قبله خوان دل إنثينا Juan del Encina أبو المسرح الإسبانى (١٤٦٩ - ١٥٢٩) ، وهو أيضا وارث تقليد المسرحيات ذات الطابع الوعظى والمسرحيات الهزلية والمحاكاة الساخرة للمواعظ وما يسمى بالـ momo (التقليد الهزلى الساخر) . وكانت هذه الأخيرة تستوحى من أحداث روايات الفروسية وإن كانت مقدمة فى عرض مسرحى . ومن أهم مسرحياته الدينية « موكب الروح Auto Alma » ذات الطابع الرمزى . وقد استطاع أن يقدم لنا فى داخل الرمز تمثيليات قصيرة يعرض فيها مختلف النماذج الإنسانية التى تضطرب في المجتمع البرتغالى فى شكل فكاهى ساخر . ومن أمثلة هذه القطع « موكب المراكب Auto das Borcas » و « موكب المهرجان Auto da Feira » والنماذج التى يقدمها فيهما هى فى الغالب : رجل

الدين ، والنبيل العاطل ، والمرأة الغبية ، والرجل الذي يتسبب فى إصابتها بالغباء ... وهو ناقد عنيف لأمثال هذه الأنماط ، ولاسيما لرجال الدين بمواعظهم الفارغة والاحتفالات الدينية المليئة بالمظاهر الوثنية ، ولما يتعرض له اليهود من الاضطهاد . ومن هنا ربط بعض الباحثين بينه وبين فكر معاصره إيراسموس Erasmus (١٤٦٦ - ١٥٣٦) مجدد الفكر المسيحى فى عصره ، ولو أن هناك باحثين آخرين ينكرون هذه الصلة . ومعظم مسرحيات خيل ڤيسنتى تنتهى بالغناء والرقص ، وهنا نراه يتميز شاعراً مقتدراً سواء فى مدائحه للعذراء أو فى مقطوعاته الساخرة أو الغنائية التى حاكى فيها الأغانى الغزلية التى تدعى « أغانى الصداقة » وقد جمعت مسرحيات خيل ڤيسنتى بعد موته ونشرت (سنة ١٥٦٢) على أيدى ابنه وابنته ، ولكن محاكم التحقيق كانت تحذف منها ماتراه نقداً صارخاً للكنيسة ورجال الدين .

وأما الشعر الملحمى فيعد لويس دى كاموينس Luis de Camões (١٥٢٤ - ١٥٨٠) أعظم أعلامه ولو أن مكانته فى الشعر الغنائى لاتقل عنها فى الميدان الملحمى . وهو - مثل خيل ڤيسنتى - ممن كانوا ينظمون شعرهم باللغتين القشتالية (الإسبانية) والبرتغالية . وكان ينتمى إلى أسرة من طبقة صغار النبلاء فى جليقية ، والتحق بجامعة قلمرية ثم انخرط فى سلك الجندية وحارب فى المغرب حيث فقد إحدى عينيه ، وفى لشبونة أودع السجن سنة بسبب اشتراكه فى عراك . وفس سنة ١٥٥٣ رحل إلى الهند ، وعرف هناك مدى اتساع المغامرة البرتغالية فى عالم الشرق الأقصى حتى بحار الصين . وفى طريق عودته لوطنه فقد مخطوط أشعاره ، ولكنه سرعان مانظم ملحمته « البرتغاليات Os Lusiadas التى أهداها للملك سباستيان (الذى كان مقتلة فى المغرب فى معركة وادى المخازن سنة ١٥٧٨) ، ولكنه لم ينل من الملك إلا معاشاً ضئيلاً لم يكن يدفع له بانتظام ، فعاش فى لشبونة فى فقر شديد حتى وفاته . ولم يطبع شعره الغنائى إلا بعد موته بسنوات (فى ١٥٩٥) .

وقد اشتهر في حياته بشعره الملحمي في عصر كان يعد هذا الشعر قمة الأدب الرفيع . أما الآن فإن كاموينس يعتبر في ميزان النقد أعظم شاعر غنائي في شبه جزيرة إيبريا في وقته ، فهو مرهف الحساسية إزاء الجمال الحسي ، ومائل بطبيعته إلى أناقة شعر عصر النهضة الأفلاطوني ، وفي شعره نلتقي بالعاطفة الحارة والثقافة الرفيعة والتعبير الأنيق ، وهو يجيد النظم في جميع الأشكال الشعرية من « الريدونديا **Redondilla** » (المدورة) التقليدية إلى الأشكال الحديثة التي أتى بها عصر النهضة مثل السونيتات والأناشيد **Canzone** والمقطوعات الرعوية ، **Eglogas** إلى الشعر الملحمي وشعر الرثاء . والحب هو الموضوع الأساسي لغنائياته ، ونجد فيها التعبير عن الإحساس البسيط التلقائي ، وقد ينتقل من ذلك إلى التأملات الروحية والتحليق في الأجواء الصوفية والتعمق في استبطان مشاعره في أغوار نفسه ، وهذا مايكسب شعره قيمة فكرية عالية . وكاموينس يرى أنه حينما يتعذر على العاشق بلوغ بغيته بسبب الفراق أو الموت أو عدم الاستجابة من الطرف الآخر فإن الحب يتحول إلى غاية في ذاته وإلى تسام روحي مجرد ، بل هو يرى المثالية حينئذ في غياب المحبوب ، فيصبح الحب قادراً على التغلب على الحزن وعلى الشجن (الـ **Saudade**) ، ويعود وسيلة للارتقاء إلى الجمال المطلق . والموضوع الثاني الذي عالجه كاموينس هو بيئة العالم ، وله أفرد الشاعر قصيدته الطويلة من البحر العروضي المسمى بالثماني (أي ذي المقاطع الثمانية) « حول فوضى العالم **Oitavas sobre o Des concerto do Mando** » ، وفيها نجد تأملاته حول ماهو واقع في مجتمعه من توزيع الثواب والعقاب تدفعه إلى التعبير عن الأسف لأن الثروة والقوة في أيدي من لايستحقونهما ، ولهذا ينتهي بوصف العالم بالفساد والفوضى ، وهو يربط بين هذا التصور وتصوره للحب ، فالوصول إلى المحبوب أمر مستحيل في عالم تسوده الفوضى وليس فيه مكان لمنطق سليم .

وأما ملحمته « البرتغاليات **Os Lusiadas** » ، فهي تغنّ ببطولات أهل بلده في الكشوف الجغرافية التي قام بها رحالته وفي تحولهم إلى قوة بحرية واستعمارية

بسط سلطانها على مساحة هائلة الاتساع فى القارات الثلاث ، وهو هنا يقدم مفهوماً جديداً للبطولة يختلف عن المفهوم القديم الذى كان الضوء يسلط فيه على فرد هو المضطلع بالمنجزات الخارقة ، وإنما البطولة هنا للشعب البرتغالى كله . وهو في أثناء ذلك يكشف عن اهتمام الإنسان بالكوزموغرافية والجغرافية الكلاسيكية وبظواهر الطبيعة وعادات الشعوب الأجنبية ، ونستشف منها سعة ثقافة الشاعر وإحاطته بمؤلفات المؤرخين البرتغاليين وبالقصص المتداولة عن الرحالة ، ويستمد من خبرته الشخصية تصوير حياة البحارة وعاداتهم ومايخوضونه من مغامرات فى رحلاتهم البحرية ، فنرى ڤاسكودى جاما ورفاقه يتحركون ويتحدثون على نحو جدير بالإعجاب . وأسلوب الحوار شائع فى الملحمة ، على أن هناك حوارات كانت موضع استياء الكنيسة مثل خطاب عجوز رستيلو **Velho do restelo** الذى تضمن إدانة صريحة لما يكون يحدو بكثير من الفاتحين البرتغاليين من عوامل الجشع والحرص على المغانم والطمع فى السلطة ، وإن تستروا بقناع من « الحرب الصليبية » التى يرفعون فيها شعار الدين . وهذه نزاهة فى الحكم تذكر لكامويتس بالثناء والتقدير .

وإلى جانب مانظمه كاموينس من شعر ملحمى وغنائى فإننا نجد لـ مسرحية كوميدية اقتبسها من المؤلف اللاتينى بلاوتوس **Plautus** ومسرحيتان سار فيهما على نهج خيل ڤيسنتى وخمسة خطابات باللهجة العامية غنية بالصور والفكاهة .

النثر :

تتمثل النماذج الأولى للنثر البرتغالى فى المدونات التاريخية . وأول مدونة تستحق الذكر هى المعروفة باسم « المدونة الثانية العامة لإسبانيا **Segunda Crorica Geral de Espanha** وتعرف أيضا باسم مدونة سنة ١٣٤٤ ، وهى السنة التى جمعت فيها أولاً تحت رعاية أحد أبناء الملك دينيس **Dinis** وإشرافه ،

وكانت هذه المدونة اقتباساً وتكملة مكتوبة باللغة الجليقية للمدونة الأولى العامة لإسبانيا التى كانت قد ألفت بإشراف الملك الإسبانى ألفونسو العاشر الحكيم . وبين المصادر التى أضيفت منها مادة جديدة على ماورد فى الأولى نصوص برتغالية قديمة مفقودة اليوم . ومن بينها تاريخ المولف الأندلسى أحمدبن محمد الرازى (المتوفى سنة ٩٥٤) ومقدمته حول جغرافية شبه الجزيرة ، وقد ترجم النص العربى إلى البرتغالية ومنها إلى الإسبانية وتعرف باسم Cronica do Mouro Rasis ، والمدونة تقص أخبار شبه الجزيرة حتى معركة طريف المعروفة باسم Rio Salado سنة ١٣٤٠ التى وقعت فيها الهزيمة على مسلمى المغرب . ودولة غرناطة على يد تحالف مسيحى من قشتالة والبرتغال وقوى صليبية أخرى وتلى هذه المدونة كتب الأنساب أوبيوت الشرف Nobiliários وهى لاتقدم إلامادة تاريخية ضئيلة القيمة ولكن أهميتها تكمن فى احتوائها على جداول أنساب الأسر المالكة والبيوتات الشريفة .

ومن المدونات التى ترجع إلى القرن الرابع عشر ، مدونة فتح الغرب Crónica da Conquista do Algarve ، وهى تؤرخ لاستيلاء البرتغاليين على الإقليم الجنوبى من البرتغال من أيدى المسلمين . وأما فى القرن الخامس عشر فأهم مدونة تاريخية هى ، المدونة العامة لتاريخ البرتغال Cronica Geral do Reino de portugal ، وتعرف باسم مدونة سنة ١٤١٩ وهى سنة تأليفها الأول وتضم عدداً من التواريخ السابقة .

وخلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر نشطت الكتابات التاريخية بشكل ملحوظ ، وذلك بسبب الرغبة فى تسجيل التوسع الاستعمارى الذى اضطلع به المستكشفون والفاتحون البرتغال فى مختلف أرجاء العالم ، فهذان القرنان هما اللذان ظهرت فيهما البرتغال على ساحة السياسة العالمية بصفتها قوة بحرية كبرى

وإحدى أعتى الدول الاستعمارية . ومن أول مؤرخي هذه الفترة فرنان لوبس **Fernão Lopes** (١٣٨٠ - ١٤٦٠ ؟) ، وكان موثقا فى بلاط الأسرة البرتغالية الحاكمة مابين سنتى ١٤١٨ و ١٤٥٤ ، وعهد إليه بالتأريخ ملوك البرتغال ، فكتب حوليات تسجل أحداث الحقبة الواقعة بين سنتى ١٣٥٧ و ١٤١١ ، وتتميز كتابته التاريخية باستخدام التعبير المباشر ، وتصوير واقع الحياة بكل تفاصيلها مما جعله خير ممثل وشاهد على عصره ، والملاحظ أنه مع تعبيره عن الولاء للبيت المالك لم يقع فى الملق الذى كان سائداً على الكتابات التاريخية فى أيامه ، فالنزاهة والحيدة كانتا من السمات المميزة لكتابه .

وبعد الملك البرتغالى دوم دوارتى **Dom Duarte** نفسه (١٣٩١ - ١٤٣٨) من كبار المؤرخين ، بدأ حكمة للبلاد فى سنة ١٤٣٣ وعرف برعايته للثقافة والآداب ، وهو الذى شجع المؤرخ فرنان لوبس على كتابة مدونته التاريخية . وقام هو نفسه بتأليف كتاب طريف بعنوان « المستشار الأمين **Leal Conselheiro** » ضمنه مجموعة من التأملات حول الحكم الصالح والسيرة المثالية للملك أو الأميره وكانت أفكاره فى هذا الكتاب ثمرة ملاحظاته الشخصية وتجاربه الخاصة ، فقد كان يرى ذلك أهم من نقل ما فى الكتب من مواعظ ووصايا . وفى الكتاب مقالات تقوم على التحليل النفسى الدقيق للمشاعر الإنسانية مع إيمان قوى بتحكيم العقل فى الغرائز والعواطف . وهو يلح على دور الإيمان بالدين وممارسة العبادات فى بناء الشخصية السوية . والكتاب بوجه عام أكثر احتفالاً بالمحتوى منه بالشكل والأسلوب ، ومع ذلك فقد كانت له مساهمة كبيرة فى خلق لغة نثرية حافلة بالاستعمالات الجديدة لمفردات اللغة . ولدوارتى أيضا كتاب فى الفروسية . ونلاحظ أخيراً أن الموضوعات التى تناولها دوم دوارتى فى كتاباته تشبه إلى حد بعيد ماكان يكتبه المؤلفون الأندلسيون المعاصرون له فى وصايا الملوك . ويلفت النظر التشابه الكبير بين ماكتبه هذا الملك البرتغالى وبين مؤلفات أديب غرناطى

معاصرله هو علي بن عبد الرحمن بن هذيل صاحب كتاب « عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة » وكتابيه في الفروسية « تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس » و « حلية الفرسان وشعار الشجعان » ولسنا نستبعد أن يكون دوم دوارتي قد استفاد من هذه الكتب وغيرها من مصادر التراث الأندلسي .

ومن مؤرخي القرن الخامس عشر أيضا غومس إيانس دي زرارا Gomes Ianes de Zurara (١٤٢٠ - ١٤٧٤) الذي أتم في سنة ١٤٥٠ تأليفه لتاريخ الملك جوان الأول الذي بدأه فرنان لوبس ، وفيه يؤرخ لاستيلاء البرتغاليين على ميناء سبته المغربي في سنة ١٤١٥ ، هذا وإن كان تفسيره لهذه الحملة بعيداً عن الدقة الموضوعية ، فهو يرجعها إلى الحماسة الدينية التي كانت تستحوذ على طبقة الأمراء والنبلاء الذين اضطلعوا بها من أجل رفع راية الدين وتحت شعار « حرب صليبية » متناسياً العوامل الاقتصادية والشره إلى الغنائم وهو المحرك الحقيقي وراء تلك الحملة البرتغالية الأولى على أرض الشمال الإفريقي . ولهذا المؤرخ مدونة أخرى حول استعمار غينيا Cide Descubrimiento e Conquista de Guiné وهي أشبه بقصيدة مديح عالية النبرة للأمير إنريكي الملاح قائد تلك الحملة .

وازداد نشاط التأليف التاريخي خلال القرن السادس عشر ، وذلك لرصد التوسع البرتغالي في الهند وبلاد الشرق الأقصى . ونعرف أربعة من المؤلفين في هذا الموضوع أولهم فرنان لويس دي كاستانيدا Fernão lopes de Castanheda (١٤٩٠ - ١٥٥٩) وكان قد بدأ حياته بالرهبنة ، ثم هجر خدمة الكنيسة وانتقل مع أبيه إلى مستعمرة جوا Goa في شبه القارة الهندية حيث عهد إليه بمنصب قضائي . ويبدو أنه تنقل في عديد من بلاد الشرق الأقصى ووصل إلى جزر ملوكاس Moluccas قبل أن يعود للبرتغال في تاريخ غير محدد (يبدو أنه سنة ١٥٣٨) . وشرع في كتابة تاريخ مفصل لامتداد دولة البرتغال إلى بلاد

الشرق . وفي وطنه راجع ماكان قد جمعه من أخبار خلال إقامته في جوا ورحلاته ، وحمله ذلك على جوب البرتغال طولاً وعرضًا متحدثًا مع القواد والنبلاء الذين شاركوا في الحملات وعادوا إلى بلادهم ، وأنفق في هذه السياحات كثيراً من ماله وصحته . وأخيراً عهد إليه بوظيفة متواضعة ، هي أمانة الوثائق في جامعة قلمرية ، وشرع في تأليف موسوعة كبيرة في عشرة مجلدات بعنوان ، تاريخ اكتشاف البرتغاليين للهند وفتوحهم فيها ، ونشر منها سبعة مجلدات في حياته مابين سنتي ١٥٥١ و ١٥٥٤ ، ونشر أحد أبنائه المجلد الثامن سنة ١٥٦١ . وأما المجلدان الأخيران فقد صدرتها سلطات التاج البرتغالي لأسباب غير معروفة . وترجمت أجزاء عديدة من هذا الكتاب إلى الإسبانية والإنجليزية والإيطالية . وأسلوب هذا المؤلف في الكتابة بدائي خشن وقيمته فيما احتوى عليه كتابه من وثائق .

وثاني المؤلفين هو غبار كوريا Gaspar Correia (١٤٩٥ – ١٥٦٥) ، وهو مؤرخ ألف كتاباً واحداً هائل الضخامة لايسهل تصنيفه بعنوان Lendas da India أي أساطير الهند . وكان قد غادر بلاده في سنة ١٥١٢ ورحل إلى الهند برسم الخدمة العسكرية وظل بقية عمره متنقلاً بين الهند وبلاد الشرق الأقصى . وخلال فترة ما كان أميناً للقائد البرتغالي ألفونسو دي ألبوركيرك Alfonse de Alburquerque وكان مقرباً بعد ذلك من كثير من حكام المستعمرات البرتغالية في الشرق . وعلى الرغم من عنوان كتابه فإنه ليس مجموعة من الأساطير ، بل هو أشبه بيوميات كان يكتبها بغير انتظام حول الأحداث التي كان شاهداً عليها في جوا والهند ، فهو رواية تاريخية وإن كان قد لوّنها ببعض المشاهد الخيالية ، ولهذا جاء عمله غنيا بتصوير المشاهد والشخصيات مع تفصيل دقيق للأحداث اليومية ووصف لما نخر في جسد المجتمع البرتغالي ولاسيما مجتمع ماوراء البحار من مفاسد ورذائل . ولعل هجومه على أصحاب السلطة والنفوذ هو الذي أدى بهم إلى

قتلة فى مالاكاو إلى حظر نشركتابةهفى أيامه . وقد ظل هذا الحظر سارياً حتى القرن التاسع عشر حينما سمح بنشره لأول مرة .

وثالث هؤلاء المؤلفين هو جوان دى باروس Joäs de Borros (١٤٩٦ - ١٥٧٠) ، وكان قد تلقى تعليماً طيباً فى بلاط الملك مانويل الأول الذى كلفة بكتابة تاريخ التوسع الاستعمارى البرتغالى . ويبدو أنه لم يغادر البر تغال باستثناء رحلة له إلى غينيا (فى ١٥٢٢) ، وقد التحق بخدمة البلاط أولاً بصفته أميناً ثم مديراً لإدارة المستعمرات الهندية فى لشبونة وسمح له ذلك بجمع كل ما كان يلزمه لكتابة ذلك التاريخ الذى أراد أن يكون شاملاً للفتوح البرتغالية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا مع وصف جغرا فى للمستعمرات وبيان لأحوال التجارة مع بلاد آسيا . ومن هذا المشروع الطموح لم يصدر إلا ثلاثة مجلدات طبعت فى حياته ، وهى تتناول تاريخ ثلاثة عقود (١٥٣٢ - ١٥٦٣) ثم نشر مجلد بعد وفاته سنة ١٦١٥ . وبين سنتى ١٥٣٩ و ١٥٤٠ نشر كتا بين أحدهما فى نحو اللغة البرتغالية من أجل تعليم هذه اللغة لرعايا البرتغال من الأفارقة والهنود ، والثانى كتاب تهذيبى تربوى . وفى ١٥٦٧ اضطره المرض بعد سنوات من العمل المرهق المتواصل فى إدارة الهند إلى الاعتزال . ويقسم تاريخ جوان دى باروس باضفاء الثناء المبالغ فيه على الاستعمار البرتغالى متجاهلاً ما كان فيه من مساوىء ، غير أن عمله يعد أساسيًا لفهم الحياة البرتغالية خلال القرن السادس عشر بما تضمنه من وثائق رجع فيها إلى مصادر كثيرة عربية وإيرانية وصينية ترجمها له أناس على معرفة جيدة بهذه اللغات .

والكاتب الرابع هو داميان دى غويس Damiâs de Góis (١٥٠١ - ١٥٧٤) ، هو مفكر ينتمى إلى الجيل المتأثر بالثقافة الإنسانية الشاملة Humanism ثقافة عصر النهضة ، وخدم منذ شبابه المبكر فى بلاط الملك مانويل

الأول ، وفى سنة ١٥٢٣ أرسل فى مهام دبلوماسية إلى كثير من البلاد الأوربية . وقضى فى هذه الرحلات عشر سنوات ، ففى ١٥٣٣ عين أميناً مالياً لإدارة الهند ، ولكنه أعتزل هذا المنصب فى السنة التالية وغادر البرتغال مفضلاً الإقامة فى بلاد الشمال الأوربى . وفى ١٥٣٨ تزوج من سيدة ثرية من لاهاى (هولندا) وبدأ بالكتابة باللاتينية ، فنشر كتابيه حول « الامبراطورية البرتغالية فى الهند » و « إثيوبيا والبرتغال فى ظل الملك چوان » (١٥٤٠) وهو كتاب استوحاه من لقائة للأسقف الحبشى زاغا زابو Zaga Zabo الذى وفدعلى بلاط چوان الثالث . وعاد غويس بعد ذلك إلى البرتغال فصار المؤرخ الرسمى للملك مانويل الأول . ومدونته التاريخية حول هذا الملك تعد أهم أعماله . على أن صلته الوثيقة فى أثناء رحلاته الأوربية بمجددى الفكر المسيحى المتحررين مارتن لوثر (١٤٨٣ – ١٥٤٦) وإيراسموس (١٤٦٦ – ١٥٣٦) كانت مما حمل رجال الكنيسة الكاثوليكية على اتهامة بالمروق من حظيرة الدين ، فقبض عليه وأودع السجن فى ١٥٧١ ولكن شيخوخته وخدمته السابقة شفعت له فى النجاة من التعذيب والموت حرقاً . فبعد سنة ونصف من السجن أطلق سراحه بعد استتابته وسمح له بالعودة إلى ضياعه ، ولكنه توفى بعد ذلك بقليل فى ١٥٧٤ .

٣ - عصر الركود :

(القرنان السابع عشر والثامن عشر) :

كانت بداية الأدب البرتغالى قوية بما فيها من تنوع وفحولة وإن اتسمت بما تكون عليه البدايات دائما من خشونة وبداوة ، فقد ولد فى دفء احتكاكه بالأدب العربى الأندلسى الذى أثرى لغته الوليدة ووسع مجالاتة التعبيرية ، واستفاد من تجربة الأدب ٠٠٠الإسبانى : القشتالى والجليقى اذى كان شقيقًا له ومقاسماً إياه فيما غذاه من روافد عربية ، ثم كان وعى الشعب البرتغالى المتزايد بشخصيته هو

الذى جعل هذا الأدب يمضى شيئًا فشيئًا فى طريق الاستقلال بعد أن قدرله حظ من النضج واستوى على ساقه .

على أن القرن السابع عشر لايكاد يهل حتى يدخل هذا الأدب فى فترة من التراجع والركود تستمر خلال القرن التالى وشطر من القرن التاسع عشر أيضا . والواقع أن هذا التراجع لم يصب الأدب وحده ، بل شمل التخلف كل مظاهر الحياة في البرتغال من سياسية واجتماعية وثقافية بوجه عام ، هذا وإن ظلت محتفظة بمركزها بصفتها دولة استعمارية عتيدة لها من « ممتلكاتها » فيما وراء البحار مايزيد على مساحتها نحو ثلاثين ضعفاً والغريب أن البرتغال لم تكد تستفيد شيئا من هذه المستعمرات الهائلة الاتساع ، فقد وصلت إلى العصر الحديث وهى أفقر بلاد أوربا وأكثرها تخلفاً وأعلاها نسبة أمية .

أما أسباب ما انتهى بالبرتغال إلى هذا الوضع فهى كثيرة ، وكان من أولها فقد البلاد لاستقلالها منذ سنة ١٥٨٠ على أثر الهزيمة التى منيت بها جيوشها فى المغرب فى وقعة « وادى المخازن » (سنة ١٥٧٨) وهى التى قتل فيها الملك البرتغالى سباستيان بغير وريث لعرش ، فاتخذ ملك إسبانيا فيليب الثانى من كونه خال الملك القتيل ذريعة للمطالبة بالعرش ، فوجه جيشًا قويًا اقتحم البرتغال واستولى عليها ، وظل الاحتلال الإسبانى حتى سنة ١٦٤٠ حينما استردت البلاد استقلالها بعد العديد من الثورات ، ولكنها بقيت تعانى من عواقب الاحتلال حتى نهاية القرن ، ولم تتمكن من إزالة آثارة إلا بمعونة بريطانية وحلف عقدته مع إنجلترا سنة ١٧٠٣ ، غير أن هذه الدولة غريمة إسبانيا ومنافستها لم تبذل معونتها إلا لقاء ثمن باهظ هو كثير من الامتيازات التى استنزفت موارد البرتغال وأدت بها إلى فقر متزايد . وأعقب ذلك اضطرابات وثورات استمرت طوال القرن الثامن

عشر وزاد الطين بلة استشراء الفساد فى مؤسسات الدولة وأجهزتها . وعلى حين كانت البلاد الأوربية الأخرى تسير قدماً فى طريق الرقى والتقدم خلال هذا العصر الذى اصطلح على تسمية بعصر التنوير(Ilustration) كانت البرتغال – ومعها إسبانيا أيضا – ترتكس فى مهاوى التخلف والرجعية فى ظل حكومات مستبدة وتحت وطأة المؤسسة الكنسية ومحاكم التفتيش La inquisition التى كانت لاتكف عن ملاحقة كل فكر متحرر . ولم يكد القرن التاسع عشر يستهل حتى لحقت بشبه جزيرة إيبريا كارثة أخرى هى الغزو الفرنسى الذى اضطلعت به جيوش نابليون بونابرت على أثر جلائه عن مصر . وقد وقع ذلك فى سنة ١٨٠٨ وكانت له أيضا عواقب وخيمة استمرت خلال شطر كبير من القرن التاسع عشر . أما الحياة الثقافية والأدبية فإنه على الرغم من الركود العام الذى أصابها ومن انغلاق البرتغال فإنها لم تنج من التأثر بالطابع الذى ساد الثقافة الأوربية ٠ خلال هذه الفترة ، وهو الفكر الكلاسيكى الجديدة ، وإن كانت ثمرات هذا الفكر فى البرتغال أقل عدداً وقيمة من مثيلاتها فى البلاد الأوربية الأخرى.

الشعر :

من أول الشعراء الذين عاشوا فى أواخر القرن السادس عشر وامتدت حياتهم إلى القرن التالى اثنان يبدو أنهما من أصل يهودى أولهما فرانسيسكو رودريفس لوبو F. Rodrigues Lobo (١٥٨٠ – ١٦٢٢) ، وهو ممن أمضوا حياتهم فى ظل الاحتلال الإسبانى ، وأهم أعماله الشعرية مجموعة بعنوان Eglogas (١٦٠٥) وهى مقطوعات غزلية من النوع الذى شاع فى هذا العصر وهو المعروف « بالرعويات » ، ثم ثلاثة دواوين : « الراعى الحاج Pastor peregrino » (١٦٠٨) و « الربيع A primaueira (١٦٠١) و « خائب الرجاء

O Desenganado ، (١٦١٤) وهو فى هذه الثلاثية يصور مباهج الحياة فى الريف بعيداً عن جو المدينة القابض للنفس ، وتشيع فى تلك القصائد روح الحنين الحزينة . ولهذا الشاعر أعمال نثرية أهمها « ليالى الشتاء Noites de Inverno ، و « البلاط فى القرية Corte na Aldeia ، (١٦١٩) وفيها يعبر عن حنينه إلى الأيام التى كان فيها بلاط الملوك فى لشبونة وكانت السلطة فى يد الملك البرتغالى . والكتابان فى صيغة حوارية وفيهما وصف لما ينبغى على رجل البلاط أن يتصف به ، وتتخلل الحوار مقطوعات شعرية من نوع الرعويات الغنائية . والشاعر الثانى هو چوان بنتو دلفادو Joäs pinto Delgado (توفى فى أمستردام ١٦٣٦) ، ويبدو أنه من اليهود الذين هربوا إلى هولندا فراراً من ملاحقة ديوان التفتيش ، ، والطابع اليهودى أوضح على شعره ، فقد استوحى نظمة من التوراة ، كما يبدو فى « قصيدة الملكة أستير Poema de la reina Esther ، و « سيرة راعوث Historia de Rut ، ، وألف أيضا « خماسيات Quintillas ، نظم فيها مراثى إرمياء شعراً وجدير بالذكر أن شعر بنتو دلغادو كان كله باللغة الإسبانية لا البرتغالية ، وذلك من آثار الاحتلال الإسبانى لبلاده .

ومن شعراء القرن السابع عشر أيضا الراهب أنتونيو داس تشاغاس Frei Antonio das Chagas (١٦٣١ - ١٦٨٢) ، وكان قد بدأ حياته محارباً فى صفوف الثوار المقاومين للاحتلال الإسبانى ، واضطر إلى الفرار إلى البرازيل ثم عاد إلى بلاده فى ١٦٥٦ حيث استمر فى الخدمة العسكرية ، ولكنه قرر اعتناق الرهبنة فى ١٦٦٣ وانضم إلى رهبانية الفرنسسكان . وكان أثناء خدمتة العسكرية ينظم الشعر بالإسبانية على طريقة الشاعر القرطبى الذى ينتمى إلى المذهب الباروكى غونغورا Gongora (ت ١٦٢٧) . وأهم أعماله مجموعته الشعرية « الفينيق العائد إلى الحياة Fénix Renascida ، . وعرف تشاغاس بعد اختياره

الرهبنة بمواعظه البليغة المثيرة التى تأثر فيها بالصوفية الإسبان ، وله مجموعة نثرية من : الرسائل الروحية Cartas Es pirituais ، قصد بها إلى التبشير بالمسيحية ، وتكثر فيها الصور الحربية ، وأسلوبه فيها مثل أسلوبه الشعرى باروكى الطابع مثقل بالصور والاستعارات البعيدة والزخارف اللفظية المعقدة .

وأما شعراء القرن الثامن عشر فيعد من طليعتهم بدرو أنتونيو كوريا غارسون Pedro Correia Garcão . وكان قد بدأ بدراسة القانون فى جامعة قلمرية ، ولكن تكوينة الجسمى الضعيف حال بينه وبين مواصلة الدراسة ، فعاد إلى لشبونة حيث تزوج من أرملة غنية عاش فى ضيعتها . ومن خلال زواجه وصل إلى منصب في إدارة الهند ، ومكنته هذه الحياة الرخية من ممارسة هوايته الشعرية ، وكان ينظم على طريقة الكلاسيكيين الجدد متأثراً بهوراس بصفة خاصة ، وأثارت قصائده إعجاب معاصرية ، فدعى إلى الانضمام للجماعة الشعرية المعروفة باسم : الأركاديا البرتغالية Arcádia Lusitana التى كتب فى منشوراتها مجموعة من المقالات النقدية حول فن الشعر تبع فيها آراء الأساتذة الكلاسيكيين الإغريق والرومان . وتحت تأثير ڤيرچيل كتب مسرحيتين حول حياة الطبقة البورجوازية وعاداتها مترسمًا فيهما خطوات المسرح الرومانى . غير أن عهد الحياة الناعمة الرغدة انتهى فجأة حينما خسر الشاعر قضيته فى المحاكم حول ثروة زوجته ، ثم قبض عليه سنة ١٧٧١ وآلت أحواله إلى الفقر . وفى هذه المرحلة من حياته اتجه إلي الزهد الرواقى وصاغ قصائد عديدة يتحدث فيها عن تقلب الدنيا وتصاريف القدر . وألح عليه المرض وهو فى سجنه حتى وفاته . وقد نشرت أعماله الشعرية الكاملة بعد موته سنة ١٧٧٨ ثم أعيد طبعها مراراً بعد ذلك .

ومن شعراء هذا الجيل أنتونيو دينيس داكروز سيلڤا Antonio Dinis de Cruz e silva ، وهو أيضًا ممن درسوا القانون فى قلمرية ، وعُيِّن قاضيًا فى

مـدينة إلبش Elvas (١٧٦٤) ، وحظى بتقدير كبير من رؤسائه ، فأرسلوه إلى البرازيل فى مهمة خطيرة هى التحقيق فى مؤامرة للتمرد على نظام الحكم فى الولاية (١٧٩٢) . وكان سيلفا قد بدأ فى كتابة الشعر قبل تخرجه من الجامعة وأصبح له صيت ذائع بفضل قصيدته الساخرة التى حاكى بها الشعر الملحمى وهى « هيسوب O Hissope » التى نظمها أثناء إقامته فى إلبش ، وكانت المدينة مسرحاً لجدال بين أسقف المدينة ونائبه حول قواعد الآداب الاجتماعية (الإيتيكيت) ، فاغتنم سيلفا الفرصة لكى يتخذ من الموضوع مادة للسخرية من القيم التى كانت في طريقها للانهيار فى ظل انحلال النظام الإقطاعى الذى حاول القضاء عليه المركيز دى بومبال De Pombal رئيس الوزراء فى عهد الملك جوزيه الأول . وقد نظمت القصيدة فى سنة ١٧٦٨ ، ولكنها لم تنشر بسبب ما فيها من تعريضات لاذعة تمس بعض الشخصيات الكبيرة ، وإن كانت القصيدة واسعة الانتشار فى الأوساط الأدبية ، وحينما نشرت لأول مرة فى باريس سنة ١٨٠٢ كانت قد أقحمت فيها إضافات كثيرة ليست للمؤلف . كذلك نشر سيلفا شعراً كثيراً بالأسلوب الكلاسيكى الجديد . وكانت وفاته فى مدينة ريو دى چانيروعاصمة البرازيل .

ومنهم فيلينتو إيليسيو Filinto Elisio (١٧٣٤ - ١٨١٩) الذى كان زعيماً للاتجاه الكلاسيكى الجديد الذى اصطنعته الجماعة الشعرية المعروفة باسم « شاطىء المراكب Grupo da Ribeira das Naus » ، وكانت هذه الجماعة منافسة لتلك الدعوة بـ « الأزكاريا البرتغالية » التى تزعمها توريا غارسون وسيلفا ، وإن كانت الجماعتان تنتميان لنفس الاتجاه الأدبى . وكان إيليسيو قد وشى به إلى محكمة التفتيش بسبب نقده للسلطات الكنسية ، فهرب إلى الهافرثم إلى باريس حيث وثق صلته بالشاعر الرومانسى لامرتين . وهو يعد آخر الشعراء الذين حافظوا على

الاتجاه الكلاسيكى ، وإن كان شعره يعد مرحلة انتقالية بين الكلاسيكية والرومانسية . وكان إيليسيوغزير الإنتاج فقد ألف خلال حياته الطويلة عدداً كبيراً من القصائد والمقطوعات الهجائية الحكمية والرسائل . ومن أهم أعماله الرسالة الطويلة التى كتبها وهو فى الثانية والثمانين وأودعها نظريتة الشعرية (Da Arte Poetica) (Portuguesa) . وقد نشرت أعماله الكاملة بين سنتى ١٨١٧ و ١٨١٩ ، وفيها يعبر عن معارضة للفكر الكنسى المتحجر ويشيد بالاتجاه التحررى الذى نادت به الثورتان الفرنسية والأمريكية .

ويشبه هذا الشاعر فى نزعته الساخرة تولنتينو دى ألميدا Tolentino de Almeida (١٧٤٠ - ١٨١١) ، وكان أيضاً من خريجى جامعة قلمرية واشتغل بالتدريس فى ظل نظام بومبال المستنير ، وبعد سقوط هذا الوزير فى سنة ١٧٧٧ عهد إليه ببعض المناصب ، وأصبح عضواً فى المجتمع البرتغالى سنة ١٧٨٠ ، واشتهر بأشعاره الهجائية التى سخر فيها من العادات البرتغالية السائدة فى مجتمعه .

وأشهر الشعراء الذين مهدوا بقوة لتطور الحركة الشعرية من الكلاسيكية إلى الرومانسية اثنان : أولهما توماس أنتونيو غونزاغا Tomás António Gonzaga (١٧٤٤ - ١٨١٠) وهو شاعر كان له تأثير كبير فى الشعر البرتغالى على الرغم من أنه قضى معظم حياته خارج البلاد . ولد فى أوبورتو وتخرج من جامعة قلمرية حيث درس القانون ، وعمل فترة فى مدينة باجة Beja ، ثم انتقل إلى البرازيل حيث تولى منصباً قضائياً فى الولاية البرازيلية ميناس چيرايس Minas Gerais ، ثم اتهم بالتمرد وحكم عليه بالسجن ثم النفى إلى أنغولا وبعدها بعشر سنوات أيضا فى موزمبيق ، على أنه آثر أن يستقر فى هذه المستعمرة بعد أن أصهر إلى أسرة ثرية هناك . وكان غونزانما أثناء إقامته فى البرازيل رأساً

لمجموعة من الشعراء البرازيليين المنتمين للمذهب الكلاسيكى الجديد ، وأما فى موزمبيق فقد كان يعد زعيم الشعراء الغنائيين الذين أنجبتهم المستعمرات . ومجموعته الشعرية « ماريليادى ديرسيو Marilia de Dirceu » (وماريليا اسم مستعار لفتاة برازيلية) تعد أكثر مجموعات الشعر البرتغالى انتشاراً بعد ديوان « البرتغاليات » لكامويش . وكان نشر هذه المجموعة فى لشبونة سنة ١٧٩٢ .

والشاعر الثانى الذى يعد أبرز شعراء البرتغال فى القرن الثامن عشر وقائد الحركة الممهدة للرومانسية هو مانويل ماريا باربوسادى بوكاج Manuel Maria Barbosa do Bocage (١٧٦٥ – ١٨٠٥) ولد فى Setubal (فى جنوبى البرتغال واسمها الأندلس شطوبر) وعاش طول حياته بوهيميا متشرداً ، ثم انخرط فى سلك جنود المشاة متطوعاً ، ثم فى البحرية ، وقادته رحلاته إلى البرازيل ثم إلى جوا ومكاو . وبعد عودته إلى لشبونة فى ١٧٩٠ التحق بالجماعة المسماة « الأركاديا الجديدة Nova Arcadia » وهى التى سميت بعد ذلك « أكاديمية الفنون الجميلة Academia das Belas Artes » ، ونشر المجلد الأول من ديوانه (Rimas) فى السنة التالية ، فحظى بتقدير كبير من شعراء عصره من أمثال فيلينتو إيليسيو والمركيزة دى ألورنا De Alorna ، غير أنه بسبب آرائه المتحررة المعادية للكنيسة أودع السجن فى ١٧٩٤ ، وبعد أن استتيب وأطلق سراحه فى ١٧٩٩ نشر المجلد الثانى من ديوانه ثم المجلد الثالث فى ١٨٠٤ ، ويتسم شعره بالتشاؤم والشكوى ، وهو متأثر فى فكره بالأديبين الفرنسيين ڤولتير وروسو .

النثر :

لم يكن حال النثر خيراً من حال الشعر خلال هذه الفترة الطويلة التى امتدت على مدى أكثر من قرنين ، فلم يظهر من الكتاب الذين يعتد بنتاجهم النثرى إلا

عدد قليل ، ونتج عن الاحتلال الإسبانى للبرتغال أن الجيل الأول من المؤلفين كانوا مزدوجى اللغة : يكتبون بالبرتغالية والإسبانية ، وترتب على سطوة الكنيسة ونفوذها على الحياة الثقافية أن كان أبرز المؤلفين من رجال الدين ، وكان أكثرهم متحجر الفكر ، إن لم يمنع ذلك أن يظهر منهم من يستثنى من هذه القاعدة بحكم اتصالة بتيارات الفكر التنويرى فى البلاد الأوربية الأخرى .

من المنتمين إلى الجيل الأول الذى عاش فى ظل الاحتلال الإسبانى فرانسسكو مانويل دى ميلو (١٦٠٨ – ١٦٦٦) ، وهو مؤرخ ومؤلف مسرحى وشاعر ورجل دولة ، كان ينحدر من أسرة أرستقراطية وتلقى تعليمه فى مدريد حيث عمل فى خدمة البلاط الإسبانى ، فقد عهد إليه بمهام سياسية كبيرة كان من أولها العودة إلى البرتغال من أجل تهدئة خواطر الناس الذين أثارتهم الضرائب المجحفة ، ثم أرسل إلى الأراضى الواطئة (هولندا) على رأس كتيبة برتغالية للقتال فى صف الجيوش الإسبانية ، ثم فى مهمة ثالثة إلى قطلونية لإخماد ثورة نشبت هناك سنة ١٦٤٠ . وقد قص علينا أخبار هذه المهمات فى كتابين له أحدهما بالإسبانية (فى ١٦٤٥) والآخر بالبرتغالية (١٦٦٠) . وبعد أن استردت البرتغال استقلالها تمرد على السلطة الإسبانية وأصبح من المدافعين عن قضية الملك الجديد جوان الرابع المنحدر من أسرة براغانا **Bragança** البرتغالية وحاول التعاون مع النظام الجديد ، غير أن الشكوك كانت تحوم حول ولائه للملكية البرتغالية ، فقبض عليه وسجن ، ثم نفى إلى البرازيل . وفى ١٦٥٨ عاد إلى البرتغال ، وعمل الملك جوان على تقريبه ، فعهد إليه ببعض المهام الدبلوماسية ، وأصبح عضواً فى « أكاديمية الكرام **Academia dos Generosos** » وهى إحدى المؤسسات التى كانت معنية بالثقافة والفنون . وكتب ميلو كثيراً بالإسبانية

والبرتغالية ، ومن مؤلفاته « دليل المتزوجين Guia de casados » (١٦٥١) وفيه يقدم وجهة نظره المتسمه بالرجعية الشديدة حول العلاقة بين الرجل والمرأة . وله ثلاث روايات قصيرة تشبه ذلك اللون المعروف بأدب الشطارة literatura Picaresca (المتأثر بأدب المقامات العربية) ، وهى بعنوان « أماثيل حوارية Apologos Dialogais » (نشرت بعد موته فى ١٧٢١) وفيها يهاجم السياسيين المعاصرين – ويندد بفساد الحكومات . وله كوميديا ساخرة بعنوان « النبيل المتأدب Fidalgo Aprendiz » ، وفيها يسخر من النبلاء المفلسين (وهو موضوع شاعت الكتابة فيه بين الأدباء الإسبان المعاصرين) . وله كتاب نقدى هو « مصحة الآداب Hospital das Letras » ، وفيه يستعرض أبرز أعلام الوسط الأدبى فى إسبانيا والبرتغال ويصدر عليهم أحكامه النقدية . ونظم ميلو قصائد تأثر فيها باتجاه الشاعر الإسبانى غونغورا ومذهبه الباروكى والخلاصة أنه من خير من يمثلون الثقافة الأرستقراطية فى النصف الأول من القرن السابع عشر .

ومن أبرز كتاب القرن السابع عشر أنتونيو ڤييرا António Vieira ، (١٦٠٨ – ١٦٩٧) وكان من رجال الكنيسة ، منتمية إلى طائفة اليسوعيين (الجيزويت) ولد فى عائلة متواضعة ، وفى ١٦١٤ رحل فى صحبة والديه إلى البرازيل ، فحل فى مدينة باهيا Bahia حيث أتم تعليمه ، ثم انخرط فى سلك الرهبنة فى ١٦٢٣ ونصب قسيساً فى ١٦٣٤ وسرعان ماذاع صيته فى المستعمرة بصفته خطيباً مفوهاً حتى أصبح أشهر وعاظ البرازيل . وفى ١٦٤١ عاد إلى البرتغال فى وفد لتقديم الولاء للملك چوان الرابع ، وكان ڤييرا يعتقد أن هذا الملك سوف يحقق نبوءات الملك سباستيان (قتيل معركة وادى المخازن) التى كانت منتشرة فى البرتغال . وحتى بعد وفاة جوان الرابع ظل مؤمناً بأن سباستيان

سوف ينشر من قبره لكى يفتتح عهد المملكة المسيحية الخامسة التى بشرت بها التوراة والتى سيملأ فيها العالم عدلاً بعد أن ملىء جوراً ، تحت راية البرتغال . وازداد نفوذ فييرا فى البلاط منذ أن عين مستشاراً للملك فيما يتعلق بشئون البرازيل ، وعهد إليه بمهام سياسية فى فرنسا وهولندا وروما (بين ١٦٤٦ و ١٦٥٠) وفى ١٦٦٢ حدث انقلاب فى القصر الملكى ترتب عليه فقد نفوذه فى البلاط ، وقبضت عليه محكمة التفتيش بعد ذلك بسبب تجاوزه الحدود فى أعماله التبشيرية وبسبب دفاعه عن « المسيحيين الجدد » أى معتنقي المسيحية من طائفة اليهود المعروفين باسم « المارّانوس Marranos » ، وأدين فى ١٦٦٧ ولكن انقلاباً آخر أعاد أصدقاءه إلى السلطة ، فأطلق سراحه ولكنه لم يعد أبداً إلى مباشرة نفوذه القديم في القصر . وبين ١٦٦٩ ، ١٦٧٥ أقام فى روما حيث استرد صيتة السابق بصفته واعظاً ومبشراً . وفى ١٦٨١ بعد زيارة للشبونة رجع إلى البرازيل بعد أن أصابتة خيبة الأمل من شئون البلاط البرتغال . وظل فى مدينة باهيا حتى وفاته . ويصفه النقاد بأنه – على الرغم من سذاجة فكره – خير كاتب بالبرتغالية على طول القرن السابع عشر ، حتى إنه يعد فى ميدان الكتابة النثرية قريناً لكامونيس فى الشعر ومازالت خطبه تقرأ اليوم وتثير الإعجاب كما كانت تثيره حين كتبت منذ أكثر من ثلاثة قرون .

ومن رجال الدين أيضاً مانويل برناردس Manuel Bernardes (١٦٤٤ – ١٧١٠) ، ولد فى أسرة من الطبقة الوسطى ، وتخرج فى جامعة قلمرية متخصصاً فى الفلسفة والقانون الكنسى ، ومؤلفاته كلها تكاد تكون مواعظ ودروسًا دينية وروحية ومنها « النور والحرارة Luz e Calor » (١٦٩٦) و « تجارب روحية Exercicios Espirituais » (١٧٠٧) و « الأهداف الأخيرة لحياة الإنسان

، Os Ultimos Fins de Homem (١٧٢٨) ، على أن اسمه يرتبط دائماً بكتابه ، المقتطفات الجديدة Nova Floresta ، (١٧٠٦ – ١٧٢٨) فى خمسة أجزاء ، وهو مجموعة كبيرة من الحكايات اقتبسها وهذبها من عدد كبير من المصادر ، وقصد بجمعها تقديم دروس تهذيبية وتربوية ، ورتبها على حروف الهجاء حسب الموضوعات ، ولكنه لم ينجز منها إلا المواد التى وصل بها إلى حرف الـ J . وتتميز هذه المجموعة بأسلوبها الأدبى المتقن وبقدرة مؤلفها على حبك القصة ، غير أن برناردس كان من السذاجة وسلامة الطوية بحيث كان يصدق كل الخوارق التى ينسبها لأبطال قصصه وهم فى الغالب من القديسين والصلحاء .

وربما كان الأديب الوحيد الذى كان على قدر كبير من التحرر الفعلى خلال هذه الفترة على الرغم من انتمائه للمؤسسة الكنسية هو لويس أنتونيو ڤرنى Luis António verney (ولد سنة ١٧١٣ وتوفى بعد ١٧٧٢) ، وكان قد درس اللاهوت فى جامعة يابرة Evora ثم القانون المدنى فى جامعة روما . وفى إيطاليا كان يتردد على دوائر المثقفين من أعلام التنوير . وكان من المؤمنين بفلسفة لوك Locke ومنهج التجريبيين الإنجليز وغيرهم من الأوربيين . وحينما عاد إلى البرتغال فى ١٧٤٢ أصبح رئيساً لقساوسة كاتدرائية يابرة Evora . ودعاه الملك چوان الخامس للمشاركة فى تطوير مناهج التعليم البرتغالية ، فنشر ست عشرة رسالة تحت عنوان ، المنهج الحقيقى للتعليم O Verdadeiro Metods de Estudar ، (ونشرت فى خمسة مجلدات فى ١٧٤٦) ، وتتضمن هذه الرسائل نقداً عنيفًا لطريقة التعليم اليسوعية التى تقوم على البلاغيات الفارغة ، ودعوة إلى برنامج تعليمي جديد يقوم على دراسة عقلية للحقائق الواقعة مع استخدام المنهج

التجريبي ، ولهذا فإنه دعا للاهتمام بالعلوم الطبيعية وفي ميدان الطب نادى باستخدام التطبيق العملي بدلاً من النظريات التي لم تعد تلائم العصر . كذلك نقد فيرني بشدة ما كان يعمد إليه المربّون من تملق للمؤلفين الكلاسيكين ، كما دعا إلى دراسة اللغات الأوربية وآدابها . وأما التراث الأدبي والفني الموروث عن القرن السابع عشر وهو المنتمي إلى المذهب البارُوكي **Barroquism** فقد كان فيرني عنيفاً في نقده بحكم مهاجمته لكل ضروب الصنعة والتكلف في التعبير الأدبي ، حتى إنه أبدى احتقاره للشعر بصفته نوعاً أدبياً . ويعد كتاب فيرني المذكور أهم عمل فكري أنتجته البرتغال خلال القرن الثامن عشر . وكثير من الآراء التي طرحها كان لها تأثير كبير في الحياة التعليمية والثقافية وقد أُخذ بها الدكتاتور المستنير ورئيس الوزراء بومبال **Pombal** في سنة ١٧٧٢ حينما اضطلع بتطوير الدراسة في جامعة قلمرية .

وأخيراً نشير إلي مجموعة مجهولة المؤلف من المقالات والحكايات النثرية الهجائية حول السياسية والأخلاق تعد من أهم نماذج النثر خلال القرن السابع عشر ، وقد نشرت هذه المجموعة في لشبونة سنة ١٦٥٢ ، واختلفت آراء الباحثين حول شخصية مؤلفها دون أن يصلوا إلى حل لهذه المشكلة ، على أن الباحث البرازيلي ألفونسو بينا جونيور **Alfons o penä Junior** استطاع أن يدلل ببراهين مقنعة على أن المؤلف الحقيقي هو أنتونيو سوسادي ماسيدو **António Sousa de Macedo** وكان ماسيدو سفيراً للبرتغال في لندن لدى الملك البريطاني تشارلز الأول ، وكان هو المخطط لسياسة بلاده الخارجية بعد انتهاء الاحتلال الإسباني للبلاد (١٥٨٠ - ١٦٤٠) ، ولهذا فقد كان أقدر الناس على معرفة مواطن الأحوال في المجتمع البرتغالي أثناء الاحتلال ، والإطلاع على الفساد والخيانات التي

أفضت إلى الكارثة وتدور الحكايات حول فساد الذمم لأولئك الموظفين وكبار الضباط الذين كانوا يتولون تزويد القوات البرتغالية بالأسلحة أثناء الحرب مع إسبانيا . وكان هؤلاء قد استطاعوا جمع ثروات هائلة نهبوها من خزانة الدولة ومما ارتشوا به لقاء معونتهم للفاتحين الإسبان على حساب قضية بلادهم الوطنية . فكانت هذه الحكايات التى نشرت بعنوان « فن السرقة Arte de Furtar » هجاءً لاذعاً لهؤلاء الرجال وكشفاً عن مؤامراتهم وحيلهم .

٤ - الرومانسية والواقعية :

(القرنان التاسع عشر والعشرون) :

خلال القرن التاسع عشر استمرت الفوضى ضاربة أطنابها على البلاد وتوالت عليها الكوارث ، فقد ابتليت بغزو نابوليون بونابرت فى سنة ١٨٠٨ ، ولم تكد تخلص من هذا الاحتلال حتى دخلت البرتغال فى دوامة من الصراع المريرين الليبراليين المنادين بصيغة ديمقراطية للحكم والرجعيين المتمسكين بمبدأ الحكم الملكى المطلق . وفى أثناء ذلك الصراع نالت البرازيل استقلالها سنة ١٨٢٢ ، وبذلك فقدت البرتغال أكبر مستعمراتها وأغناها ، وتداول المحافظون والليبراليون حكم البلاد ، ووصل الصدام بين الفريقين إلى نشوب حرب أهلية من سنتى (١٨٣٢ و ١٨٣٧) ، وأعقب ذلك فرض كوستا كابرال حكمه الدكتاتورى (١٨٤٢ - ١٨٥١) ، على أن الليبراليين عادوا للحكم فى ١٨٥٦ ونعمت البلاد بفترة من الهدوء النسبى استمرت عدة سنوات ، غير أن الأزمة الاقتصادية الطاحنة التى أدت بالبلاد إلى الإفلاس حملت الملك كارلوس الأول على حل البرلمان وإلغاء الدستور ومحاولة علاج الأوضاع المتدهورة بحكومة دكتاتورية تولى رياستها جوان فرانكو ، غير أن ذلك أثار ثائرة الليبراليين

المتشددين الذين أغتالوا الملك وولى ولى عهده فى ١٩٠٨ . ومع أن الملك الجديد مانويل اتبع سياسة ليبرالية حاول بها وضع حد للفوضى السائدة فإنه خلع عن العرش وأعلنت الجمهورية فى ١٩١٠ . ولم يستطع النظام الجديد إصلاح ما أفسدته عقود طويلة من حكم ساسة لاحظ لهم من الكفاءة وفى ظل تناحر حزبى مرير ، فتعاقبت الثورات والانقلابات ، ورزحت البلاد تحت وطأة حكم دكتاتورى جـديد فى ١٩٢٦ ، وفى ١٩٣٣ قبض على مقاليد الحكم الدكتاتورى أوليڤير اسالازار Oliveira salazar الذى أعلن ماسماه « بالدولة الجديدة » ، فحكم البلاد حكماً مطلقاً أعاد إليها بعض الصلاح ، وكان نظيراً لجاره وقرينه الجنرال فرانكو دكتاتور إسبانيا واستمر حكم الرجلين متحالفين على مدى نحو أربعين سنة حتى أوائل السبعينيات حينما توفى كلاهما . وبوفاة سالازار عادت البرتغال إلى الأخذ بنظام ديمقراطى برلمانى يقوم على تعدد الأحزا ب وإطلاق الحريات .

على الرغم من هذه الصورة القاتمة للمجتمع البرتغالى خلال القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين فى ظل نظام ملكى متهرىء ثم جمهورية تعصف بها الثورات والانقلابات – فإن الحياة الثقافية والأدبية عادت إلى شىء من الانتعاش بعد عصور متطاولة من التأخر والركود . وكان ذلك بفضل عدد من المفكرين والأدباء الذين حاولوا كسر طوق الانغلاق الذى فرضته على البلاد حكومات مستبدة ونظام كنسي رجعى ، فاتصلوا بالتيارات الفكرية المتعاقبة فى البلاد الأوربية المجاورة .

الشعر :

يعد ألميدا غاريت Almeida Garret (١٧٩٩ – ١٨٥٤) من أبرز الأدباء خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وكان رجل دولة وكاتبا مسرحياً وقصصياً بالإضافة إلى نشاطه الشعرى الذى انتصب فيه مجدداً للشعر البرتغالى

ورائداً من رواد الرومانسية . وكان قد درس القانون فى جامعة قلمرية (١٨١٦ - ١٨٢٠) ، ثم انخرط فى سلك الحركة الليبرالية التى ألهمته نظم أناشيد ذات طابع سياسى . ولكن رد الفعل الرجعى الداعى إلى الحكم المطلق أدى به إلى المنفى فى ١٨٢٣ ، فلجأ إلى إنجلترا ثم إلى فرنسا حيث توثقت صلته بالرومانسيين وبدأ ذلك في قصيدتية « كاموينس Camões » (١٨٢٥) و « دونا برانكا Dona Branca » (١٨٢٦) . وكان فى البداية من الجناح الليبرالى المتشدد الذى تألف منه حزب « المهاجرين » ، ولكنه بعد ذلك انخرط فى صفوف المعتدلين ، والتحق بالجيش الليبرالى الذى عبأه بدرو الرابع فى جزر الأزورش فى سنة ١٨٣٢ ، واشترك فى حصار أوبورتو (١٨٣٣) وأرسل فى مهام دبلوماسية ممثلاً للحركة الليبرالية ، وحينما تم انتصار هذه الحركة فى ١٨٣٧ عاد إلى البرتغال وشارك فى نشاط سياسى كبير بصفته عضواً فى مجلس النواب أما نشاطه الأدبى فقد تمثل فى جهوده لخلق مسرح برتغالى وطنى ، فأسس أكاديمية للفن المسرحى ، وشرع فى تأليف روايات مسرحية منها « تمثيلية دينية لخيل فيسنتى Um Aute Gil Vicente » و « حلاق شنترين O Alfageme de Santarem » (١٨٣٨ - ١٨٤٠) . غير أن الحكم الدكتاتورى الذى تزعمه كوستا كابرال (١٨٤٢ - ١٨٥١) أرغمه على الابتعاد عن السياسة ، فقصر نشاطه على العمل الأدبى ، وإلى هذه الفترة يرجع نشره لمجموعة قصائده « Romanceiro » (١٨٤٣) و « قوس القديسة آنا OArco de sant' Ana » (١٨٤٥) وهى قصيدة تاريخية . وعمله النثرى الذى يعد خير مؤلفاته هو « سياحات فى أرض بلادى As Viagens no Minha terra » (١٨٤٦) ، وهو لوحات من سيرته الذاتية . كذلك نشر مجموعة من الشعر الغنائى الغزلى « أوراق الشجر الساقطة Folhas Caidas » (١٨٥٣) . وحينما سقط نظام كابزال عاود غاريت نشاطه السياسى ، ومنح لقب

فيكونت فى ١٨٥١ وأصبح وزيراً للخارجية فى ١٨٥٢ وقد تميز غاريت فى كل نشاطه السياسى والأدبى بالرغبة فى التجديد مع الحفاظ على الهوية القومية البرتغالية .

ومن شعراء القرن التاسع عشر من تقلبوا بين المذهب الكلاسيكى والرومانسى مثل أنتونيو فيليسيانو كاستيليو António Feliciano Castilho ، (١٨٠٠ – ١٨٧٥) عمى وهو فى السادسة من عمره ، وتخرج فى جامعة قلمرية متخصصاً فى القانون الكنسى ، ووجه كثيراً من جهوده لترجمة أعمال أدبية بارزة إلى البرتغالية ، ولمحاكاة شعر بوكاج النيوكلاسيكى . ومن أول أعماله « الربيع A Primaveira » (١٨٢٢) و « حب وحنين Amor e Melancoliá » (١٨٢٨) . ومع أنه نظم بعض شعره على طريقة الرومانسيين مثل ديوانه « ليلة القلعة A Noite ds Castelo » (١٨٣٨) فإنه لم ينتسب لهذا المذهب الجديد إلا فترة قصيرة . وفى ١٨٤٢ تولى رياسة تحرير « المجلة اللشبونية العالمية Revista universal Lisbonense » فاتخذها منصة يوجه منها سهام نقده الشديد للشعراء الرومانسيين . وفى ١٨٤٤ نشر كتابه النقدى « حفريات شعرية Excavações Poeticas ولعله أهم أعماله . وتحول كاستيليو منذ الستينيات إلى الحاكم بأمره فى الوسط الأدبى ، وأصبحت المقدمات التى يكتبها لدواوين الشعراء الشباب بمثابة إجازة بالنشر . على أن ما أصدره فى أخريات عمره لم يلق من الإقبال ما كان يلازم أعماله الأولى .

ومنهم جوان دى ديوس Joãs de Deus (١٨٣٠ – ١٨٩٦) ، تخرج فى جامعة قلمرية حيث درس الحقوق ، وكانت طبيعته المرحة وحياته البوهيمية قد أكسبته شعبية كبيرة وهو لايزال طالباً . وفى ١٨٦٩ نشر أول دواوينه « أزهار الحقل Flores de Compo » الذى تلقاه الجمهور والنقاد بالحفاوة والثناء بسبب وضوح

لغته وجمال صياغته البسيطة فى الوقت الذى كان التكلف البلاغى والطابع البكائى يغلبان فيه على الشعر الرومانسى ، ثم أصدر ديوانه الثانى بعنوان « حقل الأزهار Campo de Flores » (١٨٩٣) . وكان من سنة ١٨٧٦ قد شرع فى إعداد منهج لتعليم الأطفال القراءة والكتابة ، واستطاع هذا المنهج أن يصبح هو الذى قررته السلطات التعليمية على المدارس . ومازال كثير من آراء جوان دى ديوس متبعاً فى المدارس العديدة التى تحمل اسمه .

ويعد شعر توماس أنتونيو ريبيرو Tomás Antonio Ribeiro (١٨٣١ - ١٩٠١) بداية قوية للشعر السياسى المعبر عن الروح القومية ، وذلك بديوانه « دون جايمى Dom Jaime » ، وهو يتألف من تسع قصائد يقص فيها الشاعر كفاح شاب من النبلاء يقود حركه المقاومة للاحتلال الإسبانى للبلاد فى أيام فيليب الثانى . ولهذه المجموعة الشعرية دلالة رمزية وإن كانت رومانسية الأسلوب لأن الشاعر - مع تناوله حدثاً تاريخياً ماضياً - أراد أن يعبر بها عن معارضته للفكر السياسى الذى ظهر فى أيامه والذى كان يدعو لوحدة شبه جزيرة إيبريا ويلاحظ عليه فيها تأثره بفيكتور هو جو فى دعوته للعدل الاجتماعى وللتعايش الإنسانى . ومن المفارقات أن هذه القصائد على الرغم من روحها الرومانسيةومن « التزامها » الواضح فقد ظفرت بمديح مبالغ فيه من قبل الشاعر النيوكلاسيكى كاستيليو الذى كان قد تنكر لها تين الخصيصتين : الرومانسية والالتزام . ولريبيرو مجموعة شعرية أخرى بعنوان « ألحان تمر Sans que Passam » (١٨٦٨) فى عشر قصائد نرى فيها اقتراباً من الطابع الواقعى فى موضوع سياسى مشابه لموضوع الديوان الأول .

وللشاعر الصحفى غليرم دى أزيڤيدو Guilherme de Azeveds (١٨٣٩ - ١٨٨٢) مكانة خاصة فى عالم الأدب البرتغالى خلال منتصف القرن

التاسع عشر . ومجموعته الشعرية الأولى « أشباح Aparicaões » (١٨٦٧) تضم شعراً عاطفياً علي طريقة لامرتين ، ولكنه فى ظل تأثره بفيكتور هو جو وبتوجيه مّن المبادئ التى كان ينادى بها أنتيرو و دى كنتال أصبح شاعراً « ملتزماً » فى مجموعته الشعرية « إشعاعات الليل Radiaçaões da Noite » (١٨٧١) ، وتزايد هذا الاتجاه عنده فى مجموعته الثالثة « الــروح الجـــديد Alma Nova » (١٨٧٤) التى ظهر فيها تأثره بديوان « أزهار الشر » للشاعر الفرنسي بودلير ، وإن كان فيها قد تجرد من الرؤية الميتافيزيقية التى تميز بها الفرنسى . وفى هذه المجموعة الأخيرة يتحدث الشاعر البرتغالى عن التباين الطبقى بين الاغنياء والفقراء فى مجتمع المدينة ، مدخلاً فى شعره عناصر شيطانية وصوراً مفزعة للأحداث والقبور . ويعد أزيفيدو مع أنتيرو رائداً لما سمى « بالمذهب الجديد » Escola Nova الذى سوف يأخذ به الجيل التالى .

في أواخر القرن التاسع عشر بدأ تيار الرومانسية فى الانحسار عن الأدب البرتغالى الذى لم ينج من تأثير ماكان يضطرب فى القارة الأوربية من مذاهب جديدة كانت الواقعية أقواها تأثيراً فى أدباء البرتغال . وأبرز من يمثلون هذا الاتجاه الجديد أنتيرو دى كنتال (١٨٤٢ - ١٨٩٢) Antero de Quental ، وهو شاعر ومفكر ولد وتوفى فى جزيرة أزورش . وكان يسارى الفكر على الرغم من نشأته في أسرة أرستقراطية ومن تلقيه تربية كاثوليكية . غير أنه أثناء دراسته فى جامعة قلمرية تكشف عن ثورة على أوضاع مجتمعه تحول معها إلى الفكر الاشتراكى . ومن هنا كان إعلانه يرفض الأدب الرومانسي الشائع فى أيامه ومناداته بالوظيفة الاجتماعية للأدب ، معبراً عن ذلك فى ديوانه « أغانٍ حديثة Odes Modernas » (١٨٦٥) ويعد كنتال الروح المحركة لما يعرف باسم « جيل

١٨٧٠ ، أو « جيل قلمرية » الذى حاول إخراج البرتغال من حياة الجمود والتخلف . وكان هذا الجيل يتألف من مجموعة من الشباب المتفتح فى طليعتهم إيسا دى كيروز ، وأورتيغان ، وأوليفيرا مارتينس . وقام هؤلاء بتنظيم مادعوه « قراءات ديمقراطية » فى كازينو لشبونة ، وذلك لكى يعرفوا أبناء وطنهم بالفكر الأوربى المعاصر . وألقى كنتال الحديث الأول بعنوان له دلالته « أسباب تخلف شعبىْ شبه جزيرة إيبريا » وفى هذا التاريخ نفسه انتمى كنتال إلى الفرع الذى أسس فى البرتغال للمنظمة الاشتراكية العالمية ، كما ارتبط بفكرة كانت تدعو إلى « اتحاد فيدرالى » بين البرتغال وأسبانيا على نحو ما ، غير أن كنتال أصيب بإحباط حينما رأى أن الطبقة العاملة فى بلاده لم تستجب لأفكاره المثالية . وأنتهت به أفكاره الجريئة إلى إنكار الكاثوليكية واعتناق عقيدة الإيمان بالعلم ، ولكن ذلك لم يخرجه من دائرة الشكوك التى كانت تلح عليه ولايجد منها فكاكًا . ويتضح هذا القلق الفكرى فى العديد من مجموعاته الشعرية التى اتخذ لها عنوان « سونتيات » (Sonnets) أما من ناحية فكره الفلسفى فلسنا نجد أصالة حقيقية فيما كان يكتبه عن المعتقدات مثل البوذية والعدمية Nihilism وغيرهما . ولكن الذى لاشك فيه هو نبل مقاصده وإخلاصه لقضية العدل الاجتماعى . وفى السنوات الأخيرة من حياته اعتزل الحياة العامة ، وانتهى الأمر به إلى الانتحار .

ومن المعاصرين لكنتال شاعر وافق اتجاه صاحبه فى مقتبل حياته ، ولكن المطاف انتهى به إلى نقيض ما انتهى إليه أمر كنتال ، ونعنى به أنتونيو دوارتى غومس ليال António Duarte Gómes Leal (١٨٤٨ – ١٩٢٤) ، وكان قد التحق في شبابه المبكر قد التحق بمكتب موثق ، ثم قضى فترة قصيرة فى كلية الآداب ولكنه لم يواصل الدراسة ، واضطربت به الحياة فى غمار السياسة العاصفة

التى اجتاحت بلاده فى أواخر القرن التاسع عشر ، وسرعان ما أصبح شخصية مرموقة فى الأوساط السياسية والأدبية ، وأصدر صحيفة ساخرة (١٨٧٢) . وفى ١٨٧٥ نشر أول ديوان له بعنوان « إشراقات الجنوب Claridades do Sul » فلفت إليه الأنظار لجمال صوره وغرابتها . وكان ليال يشن حملات عنيفة على الكنيسة والعرش مما أدى إلى تعرضه لمحاولة اغتيال فاشلة . أما فى ميدان الشعر فإن قراءاته الفوضوية وحياته المضطربة لم تمكنه من تقديم عمل شعرى كبير منتظم الحلقات ففى ١٨٨٤ نشر قصائد بعنوان « المسيخ الدجال O Anticristo » وكان مشروعًا طموحًا غير أنه لم يكمله . وكان فكره مضطرباً تعتوره الشكوك : بدأ متمرداً على الكنيسة ولكنه شرع فى التغير بالتدريج فإذا به بعد ذلك يتجه نحو قبول المسيحية كما يبدو فى كتابه « تاريخ المسيح A Historia de Jesus » ، وانتهى به الأمر إلى الإيمان الكامل بالكاثوليكية .

ومن شعراء المذهب الواقعى سيزاريو فيردى Cesário Verde (١٨٥٥ – ١٨٨٦) ويعد من أبرز شعراء القرن التاسع عشر . ولد فى أسرة غنية ، وكان لوالده ضيعة كبيرة فى ضواحى لشبونة ومصانع فى العاصمة ، فبدأ حياته مهتما بمصالح أسرته وتثمير ثروته ، وكان اهتمامه بالفكر والثقافة أمراً هامشياً . ولكنه حينما بدأت مواهبه الشعرية تتفتح أصبح متسقًا مع روح عصره ، فكان متحمساً للرقى الصناعى مشيداً بجهد الإنسان العامل ، معبراً فى نتاجه الأدبى عن تحول الإنسان القروى إلى إنسان المدينة المتفاعل مع مجتمعه . وشعره فى وصف هذه الظاهرة يعد أكثر الشعر البرتغالى تمثيلاً للمذهب الواقعى الخالص ، على أن نتاجه الشعرى قليل بحكم قصر حياته ، ولم ينشر ديوانه وهو بعنوان « كتاب سيزاريوفيردى O Livro de Cesário Verde » إلا بعد وفاته .

كذلك ينتمى لهذا المذهب أبيليو مانويل غيّرا جونكيرو Abilis Manuel Guerra Junqueiro (١٨٥٠ - ١٩٢٣) وكان بعد تخرجه فى جامعة قلمرية قد التحق بالسلك الدبلوماسى ، فعُين سفيراً فى سويسرا فى ١٩١١ . وبدأ حياته الأدبية منتمياً إلى ما أطلق عليه ؛ المذهب الجديد Escola Nova ، الذى تزعمه كنتال وأنتيرو ، وكان هذا المذهب يدعو إلى أن يكون موضوع الشعر قضايا الإصلاح الاجتماعى والسياسى وأن يصطنع المنهج العلمى مواكباً عصر تقدم المعارف ، مع عدم التفريق بين القيم الجمالية والخلقية ، بحيث تصبح العدالة الاجتماعية هى المثل الأعلى للفن . وكان جونكيرو يصرح بتبعيته فى هذه الآراء لڤيكتور هو جو ، هذا وإن لم يخل من التأثر بشكل مباشر أو غير مباشر بشيطانية بودلير . ونجد أيضاً فى شعر جونكيرو سخرية بما كان الرومانسيون يرددونة عن مثالية الحب ، وذلك فى مجموعته الشعرية ؛ موت دون جوان A Morte de dom Joäs (١٨٧٤) وعم بسخريته المؤسسة الكنسية فى ديوانه ؛ شيخوخة الآب المقدس Avelhice do Padre Eterno ، (١٨٨٥) والأسرة المالكة فى ؛ Finis Patriae ، نهاية الوطن (١٨٩٠) وفى مجموعته ؛ الوطن A Patria ، (١٨٩٦) . وبلغ شعره قمة التعبير الساخر اللاذع والأسلوب الخطابى العالى النبرة فى ديوان ؛ البسطاء Os Simples ، وقد أتاح له ذلك شهرة واسعة فى أيامه ، وهى شهرة لانرى اليوم فى إنتاجه الأدبى مايبررها من الناحية الفنية .

ومن شعراء أواخر القرن التاسع عشر المتأثرين بالاتجاهات الفرنسية التى كانت ردود فعل للرومانسية أنتونيو نوبرى António Nobre (١٨٦٧ - ١٩٠٣) وكان قد بدأ الدراسة فى جامعة قلمرية ولكنه قطع دراسته وانتقل إلى باريس فنال شهادة فى العلوم السياسية من السوربون . وأصيب بالسل وحاول أن يجد علاجاً

لمرضه في جزر ماديرا وسويسرا ونيويورك . وفي أثناء إقامته بباريس عرف شعر فيرلين وجول لافورغ ، وأكسبه مرضه حساسية مفرطة ، أنعكست على شعره الذى يفيض بالحنين إلى أيام طفولته التى قضاها بين قرى صيادى السمك وضيعة أسرته فى ريف شمال البرتغال . وفي باريس نشر مجموعته الشعرية « لحن Só (١٨٩٢) حيث ترى تعبيراً عن الوحدة والحزن الممض . وبعد وفاته نشرت له مجموعتان : « توديعات Despedides » (١٩٠٢) و « أشعار أولى Primeiros Versos » (١٩٢١) .

ويشبه هذا الشاعر في قصر حياته ومأساوية نهايته ماريو دى ساكارنيرو Máriode Sá - Carneiro (١٨٩٠ – ١٩١٦) ، وكان ينتمى إلى أسرة غنية ، رحل مبكراً إلى باريس لكى يدرس القانون في ١٩١٢ ، وكان قد نشر في أثناء ذلك مسرحية بعنوان الصداقة Amizade ، ومجموعة قصص قصيرة بعنوان « بداية Principo» ، وقضى حياته بعد ذلك متنقلاً بين باريس ولشبونة . والموضوع الذى استغرق شعر ساكارنيرو هو تجربته الشخصية فى الحياة وهى تجربة تحلل الشخصية وعبثية الوجود ، وتصاعد هذه التجربة حتى نهايتها المفضية إلى الموت ، وهو ماحدث له بالفعل إذ انتهى أمره إلى الانتحار وهو فى غضاضة الشباب . وقد صور ذلك في مجموعته الشعرية التى نشرها فى ١٩١٤ بعنوان « انتثار Dispersão » ، وقصائد هذه المجموعة تصور لنا تطور فكر الشاعر وأحاسيسه ورصدها من تبدد الحلم الأول إلي اليأس إلى الموت الذى أختاره لنفسه ، بعيداً إلى الشمال في عاصمة كبيرة ، وهو انتحاره فى باريس . ولكارنيرو إلى جوار شعره مجموعات من القصص القصيرة منها « اعتراف لوسيو Aconfessão de Lúcio » (١٩١٤) . وآخر مجموعاته الشعرية « علامات من ذهب

Indicios de Ouro ، ويتناول فيها نفس الموضوعات التى أصبحت تسيطر عليه : اليأس والموت ، وهو يعوض فيها محدودية الموضوع بسعة الخيال الجامح وغرابة الصور التي تأثر فيها بالرمزيين الفرنسيين فى جرأة غير مسبوقة فى الشعر البرتغالى .

ويحتل فرناندو بيسوا **Fernando Pessoa** (١٨٨٨ – ١٩٣٥) مكانة خاصة في الشعر البرتغالى خلال الثلث الأول من القرن العشرين . وكان قدتوفى والده وهو فى الخامسة من عمره ، وبعد ذلك بسنتين تزوجت أمه من القنصل البرتغالى في جنوب أفريقيا ، فعاش هناك طفولته وصباه المبكر ، وأتقن اللغة الإنجليزية حتي صار يكتب بها . وفى ١٩٠٥ عاد إلى بلاده ، فالتحق بالجامعة وظل يكتب بالإنجليزية . وفى ١٩١٨ نشر « ٣٥ سونتيه **35 Sonnets** »وفي ١٩٢٢ مجموعة أخري من ثلاثة أجزاء بعنوان « أشعار إنجليزية **English poems** » وعلق عليها المحرر الأدبى لجريدة التايمز قائلاً عنه أنه شاعر « شيكسبيرى » الأسلوب . وواصل إنتاجه الشعرى بالبرتغالية ، وكان ينشره فى المجلات الأدبية باسمه الحقيقى وبثلاثة أسماء مستعارة وتنوعت تجاريه الشعرية تنوعاً كبيراً فهو ينتقل من الشعر المفرط فى الحسية إلى الشعر الذهنى إلى الشعر التجريدى . كذلك كتب مقالات كثيرة فى فلسفة الجمال . وقد عده بعض النقاد أعظم شاعرأنجبته البرتغال بعد كاموينس .

ومن أغزر شعراء البرتغال إنتاجاً خلال النصف الأول من هذا القرن إيوچينيو دى كاسترو **Eugénio de Castro** (١٨٦٩ – ١٩٤٤) ، هو الشاعر الوحيد الذى انتخب عضواً فى المجامع اللغوية : البرتغالى والإسبانى والبرازيلى ، وعيِّن عميداً لكلية الآداب بجامعة قلمرية . ويعد أول من أدخل المذهب الرمزى إلى الأدب البرتغالى ، وكان ذلك ثمرة لإقامة له فى باريس منذ سنة ١٨٨٩ عرف خلالها

مالارمية وچان موریاس وكان . وتمثل تشبعة بهذا المذهب فى أربع مجموعات شعرية ينشرها بين ١٨٩٠ و ١٨٩٤ وكان لها تأثير كبير على الجيل التالى له من الشعراء : جيل ساكارنيرو ورفاقه . وتعد المقدمة التى كتبها لديوانه Oaristas (١٨٩٠) ذات أهمية بالغة ، وفيها ينبه إلى فقر اللغة الشعرية لدى أدباء بلاده ويدعو إلى الاهتمام بالصورة الشعرية وضرورة أن يكون الشعر مخاطبًا لجميع الحواس ، وإلى أن تطلق للشاعر حريته في استخدام كل الوسائل التعبيرية بما فيها الجناس والموسيقى الداخلية . وكان شعره تطبيقًا لما طرحه من نظريات . على أننا نراه في ديوانه ، بلقيس Belkiss (١٨٩٤) نراه يتراجع تدريجيًا عن آرائه التجديدية إلى ضرب من الكلاسيكية وإلى اتجاه متزايد نحو استخدام عناصر فولكلورية . ويبلغ عدد مجموعاته الشعرية ثلاثين من أشهرها ، حب مقدس Sagramor (١٨٩٥) وسالومى Salomé (١٨٩٦) والملك جالاور O. Rei Galaor (١٨٩٧) وكونستانا Constança (١٩٠٠) وبعد الصائفة Dipois da ceifa (١٩٠١) ومرصعات رومانية Camafeos Romanos (١٩٢١) .

رأينا من عرضنا لمحاولات تجديد الشعر البرتغالى أنه كانت تتابع ما كان يظهر فى أوربا ولاسيما فرنسا من مذاهب شعرية ، على أننا نجد فى النصف الأول من هذا القرن دعوة إلى أن يكون التجديد نابعًا من صميم التراث الشعرى البرتغالى . ويمثل هذا الاتجاه تيشيرا دى باسكوايس Teixeira de Pascoais (١٨٧٧ - ١٩٥٢) ، وهو يعد زعيمًا للجماعة التى عرفت باسم السوداديين Saudosistas ، (نسبة إلى لفظ Saudade ويعنى الحنين إلى الماضى وهو الذى يميز لونًا من الغناء البرتغالى الأصيل يغلب عليه طابع الحزن) . وقد بدأ ظهور هذا الاتجاه بعد قيام النظام الجمهورى فى ١٩١٠ وكان أعضاء هذه الجماعة

ينشرون إنتاجهم الأدبى فى مجلة « النسر A Aguia » وكان بسكوايس يشرح أصول مذهبه فى مجموعة محاضراته التى ألقاها حول ما سماه « العبقرية البرتغالية O Genis Portugués . ومن المبادىء التى كان يدين بها تفضيله لما كان يدعوه القيم المعمارية الراسخة فى الآدب الإنجليزى على موسيقية الرمزيين الفرنسيين . وكان يعبر عن إعجابه بالتراث الشعرى البرتغالى ويعد نفسه وجماعته ورثة لشعراء وطنه الأقدمين . و « الحنين » الذى اتخذه أساساً لمذهبه هو في نظره ثمرة امتزاج الدم الرومانى بدماء الساميين : العرب واليهود فى عروق البرتغالى ، وهو أيضاً مزيج من المسيحية والعقائد الأخرى التى دان بها شعب بلاده خلال حقب من تاريخه من وثنية وإسلامية ، وما تعاقب على تاريخ البرتغال من فترات عظيمة وتدهور ، فالشخصية البرتغالية عنده مزيج من المتناقضات ، والحنين ليس إلا خلاصة لهذه الشخصية تجمع بين التذكر والرغبة ، وهو الرباط الذى يصل بين المحب والمحبوب ، بين الحجر والشجر ، بين الروح والجسد ، والخلاصة أن بسكوايس شاعر ميتافيزيقى يبدو تحليق خياله فى قصائده الطوال مثل « العودة إلى الفردوس Regresso as Paraiso (١٩١٢) و « من أجل النور Para a Luz » و « حياة أثيرية Vida Eterea » ، و « الظلال As Sombras » . ولبسكوايس أعمال نثرية حول شخصيات تاريخية منها نابوليون Napoleão والقديس أغسطين San Agostinlo والقديس بولس S. Pouls وغيرهم .

النثر :

إذا كان غاريت هو رائد الاتجاه الرومانسى فى الشعر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر فإن نظيره فى الكتابة النثرية هو أليكسندر إيركولانو

Alexandre Herculano (١٨١٠ – ١٨٦٦) وهو مؤرخ ومفكر ولد فى لشبونة ولم يستطع الالتحاق بالجامعة بسبب فقر أسرته ، ولكنه عوض ذلك بالقراءة النهمة حتى استطاع أن يحصل علماً غزيراً . وكان يميل منذ شبابه إلى الحزب الليبرالى ، وهذا مـا اضطره إلى الهـجـرة مـن وطنه بعـد اشـتـراكـة في مـؤامـرة لخلع النظام الدكتاتورى الذى فرضه على البلاد الملك ميغيل Dom Miguel . وفى أثناء منفاه بفرنسا فى ١٨٣١ عمل على دراسة الأدب الفرنسى ، وفى ١٨٣٣ عاد إلى البلاد بصفته جنديا فى جيش التحرير الذى كان يقوده المطالب بالعرش بدور Dom pedro وكـان مناصراً لقضـيـة الديمقراطية والدستور . وفى ظل النظام الجـديد المنتصر كوفىء بتعيينه محافظاً لمكتبة أوبورتو ، على أنه لم يكن مؤيداً للجناح المتشـدد من الحـزب الليبـرالى الذى كـان ينتـمى إليـه ، فندب نفسه للدفاع عن مبادىء الجناح المعتدل بصفته صحفيا ثم نائباً فى البرلمان ، وفى ١٨٣٩ عيّن مديراً لمكتبة أجودا Ajuda الملكية ، وهو مامكنه من أن يفرغ لدراساته التاريخية . وقد توقف نشاطه السياسى مؤقتاً خـلال دكتاتورية كـوسـتـا كابرال (١٨٤٢ – ١٨٥١) ، وجـعله ذلك ينصرف للتأليف فنشر رواية تاريخـيـة بعنوان « القبى O Bobo » (١٨٤٣) ثم شرع فى تأليف كتابية الكبيرين « تاريخ البرتغال História de Portugal » و « أصـول مـحـاكم التنفـتـيش فى البـرتغـال ونشـأتهـا Origem e Establecimiento da inquisicão em portugal » ، وحـيـنمـا ظـهـر المجلد الأول من تاريخه فى ١٨٤٦ أصبح هدفاً لهجوم المؤسسة الكنسية وتجريحها ، وذلك بسبب تبديده لبعض الخرافات الدينية الشائعة مثل إنكاره لتدخل المسيح فى معركة وريـق « Ourique » التى دارت فيها الدائرة على المسلمين . وبعد سقوط كابرال عاود إيركولانو نشاطه السياسى ، فاشترك فى تعديل القانون المدنى وإليه يرجع الفضل فى الاعتراف بالزواج المدنى فى البرتغال ، وفى ١٨٥٧ اعتزل إيركولانو

الحياة السياسية وانقطع إلى ضيعته فى شنترين محاطا بكل ضروب التكريم حتى وفاته . وكتاباه فى تاريخ البرتغال وتاريخ محاكم التفتيش اللذان يكشفات عن دقتة ومنهجيته العلمية فى البحث الجاد يعدان من أعظم المنجزات . وفيهما تبدو روحه الليبرالية التى تتمثل فى مهاجمته لمحاكم التفتيش وتصوير الفظائع التى ارتكبتها هذه المؤسسة فى تعقب المشتبه فيهم بحجة الحفاظ على نقاء الديانة المسيحية .

ومن الكتاب المنتمين للمذهب الرومانسي جوزيه داسيلفا منديس ليال **José Silva Mendes Leal** (١٨١٨ – ١٨٨٦) ، وكان سياسيًا ودبلوماسيًا ناجحًا ، ونال إلى جانب ذلك شهرة واسعة فى ميدان الأدب ولاسيما فى الكتابة المسرحية ، على أنه لم يستطع أن يحتفظ بهذه الشهرة التى لم يكن جديراً بها لأن أعماله كانت تتسم بالتقليد وتفتقر إلى الأصالة . وكان قد بدأ إنتاجه الأدبى بنشر ميلودرامات تاريخية صاخبة فى أسلوب خطابى زاعق على طريقة دوماس الأب مثل « المرتدّان **Os Dois Renegados** » (١٨٣٩) التى نالت نجاحًا هائلاً لم يتكرر بعد ذلك . وأعقب روايته هذه بروايات مشابهة مثل « الرجل ذو القناع الأسود **O Homem da Máscara Negra** » ، ثم اتجه إلي كتابة المسرحيات الاجتماعية مقلداً دوماس الابن مثل « رجال من رخام **Os Homens de Mármore** » (١٨٥٤) و « رجل من ذهب **O Homem de Ouro** » (١٨٥٥) ، كما كتب مسرحيات تاريخية مثل « إيجاس مونيز **Egas Moniz** » (١٨٦١) وكوميدية مثل « أولى غراميات بوكاچ **Os Primeiros Amores de Bocage** (١٨٦٥) . وقد وقفت به موهبتة المحدودة عند كونه صحفيًا وكاتبًا سياسيًا ، ولعل خير أعماله فى هذا الميدان كان كتابه « تاريخ حرب الشرق **História da**

Guerra do Oriente ، (١٨٥٥) وتحقيقاً صحفياً جيداً حول حرب القرم . كذلك نشر مجموعتين شعريتين هما « أغاني Cánticos ، (١٨٥٨) و « قصائد Poesiás ، (١٨٥٩) ، وهو ديوان يقلد فيه ڤيكتور هو جو في تصويره لأبطاله الرومانسيين .

ويعد كاميلو كاستيلو برانكو Camilo Castelo Branco (١٨٢٥ – ١٨٩٥) في طليعة الكتاب الروائيين خلال القرن التاسع عشر ، وهو كاتب اتسمت حياته بطابع مأساوي لازمه طول عمره . كان ابنا غير شرعي وابتلي باليتم وهو في العاشرة ، فرباه بعض أقاربه ، ونال قسطاً من التعليم في مدرسة قروية ، ثم انطلق إلى الحياة المضطربة ، فبعد زواج قصير في سنة ١٨٤١ حاول دراسة الطب في جامعة قلمرية وأوبورتو ولكنه فشل ، فاشتغل بالصحافة ، وبدأ في نشر مسلسلات حافلة بالدسائس الغرامية جلبت له شهرة كبيرة . وحينما هجرته إحدى عشيقاته « آنا بلاسيدو » لتتزوج من تاجر غني فكر في الانخراط في سلك الرهبنة (١٨٥٠) ، ولكنه سرعان ماهاجر هذه الحياة قبل أن يُرَسَّم قسيساً . وكان لرواياته وقصصه القصيرة آنذاك رواج كبير ، ولم يمنعه زواج عشيقته آنا من الاتصال بها . وفي ١٨٥٩ أغراها بالهرب معه إلى لشبونة ، وبسبب ذلك حوكم وسجن . وكانت هذه التجربة هي التي أوحت له بأعظم رواياته نجاحاً وشهرة وهي « الحب الضلّيل Amor de perdicão ، (١٨٦٢) . وأما مابقي من حياته فكان خالياً من الإثارة وإن لازمه الطابع المأساوي ، فقد تمكن أخيراً من الزواج بآنا ولكن طلاوة الحب ونشوته ذهبت مع مرور الزمن ، ولم يكن فيمن أنجب الزوجان من الأبناء سلوى عما خيم على حياة كاستيلو برانكو من جو قاتم حزين ، فقد تزايد ضعف بصره المؤدي به إلى العمى ، هذا مع ماترتب على إكبابه على العمل من إرهاق شديد . وعلى الرغم من نجاح روايته « الحب الضليل » ومن منحه لقب « ڤيكونت »

فى ١٨٨٥ فإنه لم يعش أبداً فى بسطة من العيش . وانتهى الأمر به إلى الانتحار . وقد أنعكس حياة برانكو المضطربة الحافلة بالمغامرات على مؤلفاته التى تعد ضرباً من السيرة الذاتية إلى حدما . ومن بين مئات الروايات والقصص القصيرة التى ألفها يمكن أن نلاحظ أن شطراً منها كان موجهاً لنقد المجتمع نقداً ساخراً لاذعاً ، ولاسيما للطبقة البورجوازية حديثة العهد بالنعمة ، ومنها مايصور حياة الناس فى الريف والمدن الثانوية مثل ، قصص من نــهر الميــنيو Novelas dó Minho ، (١٨٧٥ – ١٨٧٦) ، ومنها روايات تاريخيــة مثــل ، اليــهودى O Juden ، (١٨٦٧) وغـرامية ملتهـبة مثل ، أين توجد السـعادة ؟ ، Onde está a Felicidade ? ، (١٨٥٦) . وأعمال كاستيلو برانكو على مستوى رفيع من الجودة بوجه عام ؛ مما يجعلها حتي اليوم متعة للقــارىء إذ إن مرور الزمن لم يفقدها بريقها ولاجدتها .

ومن معاصرى كاستيلو برانكو والمتجهين مثله إلى الواقعية ، نتونيو بدرو لويس دى مندونســا Antonio Pedro Lopes de Mendonça (١٨٠٦ – ١٨٦٥) ، ولو أنه لم يفرغ للفن القصصى ، إذا شتغل أيضاً بالنقد والصحافة ، وأول أعماله القصــصية وأبرزها ، مــذكرات حــزين Memórias d um Doido ، (١٨٤٦) ، وبها يلاحظ التحول من الاتجاه الرومانسى إلى الواقعية علي طريقة بلزاك . ويبدو أن تقبل الجمهور المحدود لروايتـه هو الذى صـرفـه عن الإبداع الأدبى إلى الصحافة السياسية والنقد الأدبى حتى أصبح مــن رواد هذا النوع الأدبى . وقد تولى تحرير مجلة ، ثورة سبتمبر Revolacöo de Setembro ، لفترة (١٨٤٦ – ١٨٥٧) وتأثلت مكانته ناقداً بكتابه ، دراسات في النقد والأدب Estudos de Créticae Literatura ، (١٨٤٩) ثم بكتابة المؤلف من جزأين ،

ذكريات من إيطاليا Recordaçãoes de Italia ، (١٨٥٢ - ١٨٥٣) ، وهــو كتاب يجمع بين أدب الرحلة والصحافة الأدبية وقصة حب خفيفة الظل ، وكان له رواج كبير ، ورأى فيه النقاد مشابه من رواية غاريت ، سـياحات فى أرض بلادى ، . وفى ١٨٥٨ نشر دراستين كبيرتين : ، داميان دى غويس ومحكمة التفتيش Damião de Gois e a Inquisicão ، و ، جوزية أغوسيتنيو دى ماسيدو José Agostinho de Maceds ، وأهله هذان الكتابان لكى يشغل كرسى الأدب الحديث فى المعهد العالى للأدب الذى أنشىء فى لشبونة سنة ١٨٦٠ ، على أن انغماس لويس دى مندونسا فى العمل أدى به إلى نوع من فقد التوازن العقلى ، وهو مرض لازمة فى أواخر حياته حتى وفاته .

ومن أعلام الكتابة الصحفية جوزيه دوارتى رامالبو أورتيفان José Duarte Ramalho Ortigão (١٨٣٦ - ١٩١٥) وهو مفكر كان على صلة وثيقة بإيسا دى كيروس وكان لكيروس فضل تحويله للدفاع عن قضية التجديد والإصلاح التى نهض بها الجيل المعروف باسم ، جيل ١٨٧٠ ، وأنشأ بالتعاون مع كيروز صحيفة ، القيثارات As Farp ،(ابتداءً من سنة ١٨٧١) ، وكانت ذات طابع نقدى ساخر واتجاه اشتراكى متأثر بوضعية المفكر الاجتماعى تيوفيلوبراغا Tofilo Braga . على أن حماستة الثورية التى ميزته فى شبابه لم تلبث أن نظمت وتحول - على حدقوله - إلى ، مغلوب قهرته الحياة Vencido da Vida ، وأصبحت مقالاته فى ، القيثارات ، تغنياً بالحياة التقليدية وبالاحتـفالات التـى نظمت بمناسبة مرور ثلاثة قرون على وفاة شاعر البرتغال الأكبر كامويش (١٥٨٠ - ١٨٨٠) وهكذا تم تصالحه مع الملكية البرتغالية وما تمثله من النظام السياسى المحافظ ، بل إن مقالاته الأخيرة كانت هجوماً عنيفاً على الحزب الجمهورى .

ومن الروائيين الذين يمثلون التحول إلى المذهب الواقعي چوليو دينيس Julio Dinis (١٨٣٩ - ١٨٧١) وهو كاتب بدأ بدراسة الطب في مدرسة الطب ببلده أوبورتو وإن كان كثير التغيب بسبب إصـــابته بسل أسرع بوفاته وهو في سن الشباب . وقد طغت شهرته الأدبية على مهنته وارتفعت مكانته في عالم الفن القصصي بفضل ثلاثيته : « تلميذات السيد مدير الجامعة As Pupilas do Senhor Reitor » و « أسرة إنجليزية Uma Familia Inglesa » و « في حقول قصب السكر A Morgadinha dos Canaviais » (١٨٦٧ - ١٨٦٨) وكـان ينشرها مسلسلة في صحيفة أوبورتو Jornal ds Porto ويمثل دينيس مرحلة انتقالية بين الرومانسية والواقعية . وكان تأثره واضحاً بالأدب الإنجليزي ولا سيما بديكنز وثاكيراى وكذلك بالفرنسي بلزاك . وكان دينيس قد تعمق في دراسة علم النفس مما أنعكس على رواياته فيما يتخللها من مناجيات ومخاطبات للنفس . وفي رواياته فضلاً عن ذلك تصوير لحياة المدينة ونفسيات نماذجها البشرية ، ولكنه أميل إلى التفاؤل والارتفاع بهذه النماذج إلى المثالية ، إذ لاتكاد نجد في تصويره مشاهد للبؤس أو القبح . وكان دينيس ليبرالي الفكر : هاجم الرجعية الكنسية وفساد نظام الانتخابات ولاسيما في روايته الأخيرة . وقد ألف مجموعة من القصص القصيرة على الطريقة البلزاكية حول حياة الريف ، ورواية كتبها على عجل مما جعلها متفككه بعض الشيء هي « نبلاء من أسرة موريسـكية Os Fidalgos da Casa Mourisca » (١٨٧١ - ١٨٧٢) وفيها يتتبع حياة أسرة من بقية الشعب المسلم الذى كانت تتعقبه محكمة التفتيش بأشد ضروب التنكيل . وله أيضًا مجموعة شعرية (١٨٧٣) وست مسرحيات كوميدية .

وأعظم كتاب الرواية خلال القرن التاسع عشر مع كاستيلو برانكو هو إيسا دى كيـروس Eça de Queirós (١٨٤٥ - ١٩٠٠) . وكان ابناً غير شرعي لأحد

المشتغلين بمهنة القضاء ، فتربى فى كنف جدية ، وتعليم فى جامعة قلمرية حيث كان مكبًا على القراءة ، متأثراً بالأدب الرومانسى الفرنسى والألمانى مما يبدو فى كتاباته النثرية الغنائية التى جمعت بعد موته بعنوان « صفحات نثرية وحشية Prosas Barbaras» (١٩٠٥) . ومارس المحاماة لمدة قصيرة فى لشبونة ، ولكنه لم يلبث أن انضم بكل جهوده إلى نصرة قضية الإصلاح والتجديد التى دعا إليها « جيل ١٨٧٠ » مع زميليه أنتيرو وكنتال ، وكان ينشر فى هذا المجال مقالات ملتهبة فى صحيفة « القيثارات » التى أنشأها مع أورتيجان ، وألقى فى كازينو لشبونة إحدى محاضرات السلسلة المعروفة بـ « قراءات ديمقراطية » وكانت بعنوان « الواقعية : تعبير جديد عن الفن » (١٨٧١) . والتحق كيروس بعد ذلك بالسلك القنصلى (فى ١٨٧٢) فعاش منذ هذا التاريخ خارج بلاده . وإلى هذه الفترة ترجع رواياته الاجتماعية العظيمة « جريمة الأب أمارو O Crime do podre Amaro » (١٨٧٥) و « ابن العم باسيليو O primo Basilio » (١٨٧٨) و « الخبيثات As Malas » (وهى رواية تأخر نشرها إلى ١٨٨٨) ومن منطلق وفائه للمبادىء التى أعلنها فى محاضرته حول الواقعية عمل فى رواياته على كشف عيوب الطبقات الحاكمة فى البرتغال ومفاسدها . وكان هدفه هو الدعوة إلى الإصلاح والتنوير عن طريق كشف اللثام عن الأمراض التى يعانى منها المجتمع البرتغالى ولاسيما طبقاته الرجعية المعارضة لكل تجديد ، على أن تعبيره عن أفكاره كان موضوعيًا إلى أبعد حد . وكانت أشد حملاته عنفًا على المؤسسة الكنسية التى عدها معقل الرجعية ، وكذلك ندد بضعف المستوى الثقافى للطبقة الوسطى فى بلاده . وعلى الرغم من هذا الجهد الذى بذله كيروس فى سبيل الإصلاح فإن الاستجابة لكتاباته كانت ضئيلة مما أدى إلى شعوره بالإحباط ، وهذا ماجعله فى أواخر حياته الأدبية يصرف همه إلى الانطواء على نفسه والإخلاد إلى

أدب لاهدف له إلا الزينة وزخرف الأسلوب مثل روايته « أسرة راميرس النبيلة / A Iustre Casa de Ramires » (١٩٠٠) و « المدينة والجبال A Cidade e as Serras » (١٩٠١) . وخلال هذه السنوات الأخيرة كان يعيش فى باريس وينظر إلى بلاده كما لو كان سائحًا أجنبيا ، وكان قد أصهر إلى أسرة أرستقراطية وأخلد إلى حياة الرفاهية حتي وفاته فى باريس .

وممن اشتغلوا بالكتابة التاريخية چواكيم بدرو دى أوليڤيرا مارتينس Joaquim Pedro de Oliveira Martins (١٨٤٥ – ١٨٩٤) وهو مؤلف غزير الإنتاج متنوع الاهتمامات كتب فى التاريخ العام وفى تاريخ بلاده . وكان مؤرخاً موهوباً لم يقصر اهتمامه على رصد الأحداث التاريخية وإنما عمل على أن يفسرها تفسيراً اجتماعيًا ، كما كانت له أحكامه الخلقية على الأحداث الكبرى وعلى الشخصيات التى قامت بدور فيها ، غير أن غزارة المادة التى كانت بين يديه واتساع دائرة اهتماماته جعلته يقع فى أحكام تعميمية غير سليمة وفى أخطاء عديدة . وكان مارتينس ممن علموا أنفسهم بأنفسهم ، كما شارك فى الحياة العامة على نحو نشيط ومتنوع ، فقد عمل مديراً للمناجم فى محافظة قرطبة بإسبانيا ، ثم مديراً لشبكة الخطوط الحديدية فى بلاده ، ووزيراً للخزانة ،ولم تحل هذه الوظائف بينه وبين الكتابة . ومن أهم مؤلفاته « تاريخ الجمهورية الرومانية História da Republica Romana » (١٨٨٥) و تاريخ البرتغال História de Portugal (١٨٧٩) و « تاريخ الحضارة الإيبيرية /Historia da Civilizacão Lbérica » (١٨٧٩) وهذا الكتاب الأخير تفسير نقدى لتاريخ إسبانيا والبرتغال كان له شهرة واسعة فى كلاً البلدين .

ومن الذين جمعوا بين الفن الروائى والمسرحى والتأريخ الاجتماعى والصحافة راؤول براندون Raul Brandão (١٨٦٧ – ١٩٣٠) . لمع نجمه فى

الوسط الأدبى فى العقد الأخير من القرن الماضى بصفته كاتباً لقصص قصيرة ثم صحفيًا فى جريدة « بريد الصباح Correis da Manhá » ، وكان يعالج فى مقالاته معاناة الطبقات الفقيرة وما تتعرض له من استغلال الأقوياء ، وظهر ذلك على نحو أكثر فنية فى روايته « مذكرات قصره Memórias de um Polhaço » (١٨٩٦) حيث صور مأساة العمال والفلاحين والبحارة . وخلال السنوات الأولى من القرن العشرين تأثر بالفن الروائى الروسى ولاسيما بدستويفسكى ، وكان من ثمرات ذلك رواياته الثلاث العظيمة : الفقراء Os Polres » (١٩٠٦) و « المهزلة AFarsa» (١٩٠٩) و « دخان Húmus » (١٩١٧) ، وذلك فى روايتية مسرح Teatro» (١٩٢٣) و « المتسول Pobrede Pedir » (١٩٣١) . ويتميز فنه القصصى بأسلوبه الشعرى وتأملاته الفلسفية حول الحياة وشخصية الإنسان فى ازدواجيته النفسية بين « الأنا » الفردية والشخصية الاجتماعية . أما مضمون رواياته فهو متردد بين المثالية الصوفية والعدمية الفوضوية . ولبراندون إلى جانب ماذكرناه ثلاث دراسات تاريخية اجتماعية هى « الملك جونوت El-rei Junot » (١٩١٢) و « مؤامرة غومس فريرى A Conspiração de Gomes Fereire » (١٩١٤) ، و « المذكرات As Memórias » (المنشورة فى ثلاثة مجلدات فى ١٩١٩ و١٩٢٥ و١٩٣٣) بالإضافة إلى مجلدين من التحقيقات الصحفية .

ومن أبرز كتاب القرن العشرين أكيلينوريبيرو Aquilino Ribeiro (١٨٨٥ - ١٩٦٣) ، وهو كاتب له نحو سبعين مؤلفًا مابين روايات ومجموعات قصص قصيرة ومسرحيات ومقالات وترجمات ودراسات تاريخية ونقدية وسير وقصص للأطفال . وحياته حافلة بالأحداث : كان ثورى الفكر وبسبب آرائة السياسية سجن

وهرب من السجن ونفى مرتين (فى ١٩٠٧ و ١٩٢٧) فاستقر فى فرنسا ودرس فى السوربون ، وأنضم إلى الحركة الثورية المعروفة باسم Seara Nova . وكرمتة حكومة البرازيل فى ١٩٥٢ ، وفى ١٩٥٨ انتخب عضو فى الأكاديمية البرتغالية ورئيسًا لاتحاد الكتاب ومرشحًا لجائزة نوبل . وكانت وفاته موافقة للاحتفال بالذكرى الخمسينية لظهور أول مجموعة من قصصه القصيرة « حديقة العواصف Jardim das Tormentas » التى ألفها حينما كان يدرس فى باريس ، وتعد أعماله الأدبية كلها تعبيراً عن الكفاح ضد الاستبداد واستغلال الأقوياء للضعفاء والنفاق والرجعية . ويدور الكثير من قصصه فى الريف ، ولاسيما فى منطقة بيرا العليا Beira Alta ، ولكنه اتجه بعد ذلك إلى تصوير الحياة فى العاصمة لشبونة منذ عاد من منفاه فى سنة ١٩٣٢ . ويتميز أسلوب ريبيرو بغناه اللغوى واستخدام لغة التخاطب اليومى ، وهو يفوق فى هذه الظاهرة أسلوب كاستيلو برانكو الذى كان يكن له إعجاباً عظيمًا مما حمله على كتابة دراسة جيدة له . وأبرز إنتاج ريبرو مجموعتاه القصصيتان « حديثة العواصف » التى أشرنا إليها (١٩١٣) و « طريق سنتياغو Estrada de Santiago (١٩٢٢) ، ثم رواياته الطويلة « الطريق المتعرج A via sinuosa » (١٩١٨) و « أرض الشيطان Terras de Demo » (١٩١٩) و « الوحوش تجوس الغابات Andam Faunos Pelos Bosques (١٩٢٠) و « ماريا الطيبة Maria Benigna » (١٩٣٣) ومن أهم رواياته « عندما تعوى الذئاب Quands as lobos Uivam » (١٩٥٨) وهى رواية منعت الحكومة تداولها بعد طبعتها الأولى وصادرتها حتى لم تعد فى متناول الأيدى إلا فى ترجمتها الإنجليزية الصادرة فى سنة ١٩٦٣ .

ومن أبرز كتاب القرن العشرين جوزين ماريا فيريرا دى كاسترو José Maria Ferreira de Castro (المولود فى ١٨٩٨) وهو قصاص هاجرفى صباه

المبكر إلى البرازيل سنة ١٩١١ فقضى أربع سنوات يعمل فى مزارع المطاط فى غابات الأمازون ثم ثلاث سنوات أخرى فى ولاية بارا Pará مشتغلاً بالصحافة وسنة متجولاً فى أنحاء البرازيل ، وعاد إلى البرتغال سنة ١٩١٩ فواصل العمل فى الصحافة ، ونشر عدداً من الروايات القصيرة ومسرحية . وكان أول نجاح له فى عالم الأدب حينما نشر روايته الاجتماعية « المهاجرون Emigran tes » (١٩٢٨) التى صور فيها من خلال تجربته الشخصية معاناة المهاجرين البرتغاليين فى البرازيل . وكان نجاحه الثانى عند نشره رواية « الغابة A Selva » (١٩٣٠) التى أكسبته شهرة عالمية إذ ترجمت إلى سبع عشرة لغة ، وهى تصوير لحياة مستخرجى المطاط فى الغابات الأمزونية . واستمرت عنايته بتصوير أحوال العمال ومايقاسونه من استغلال الشركات الرأسمالية فى رواياته الأربع التالية : « أبد Eternidade » (١٩٣٣) و « الأرض الباردة Terra Fria » (١٩٣٤) و « عاصفة Tempestade » (١٩٤٠) و الصوف والجليد A Lã e aNeve » (١٩٤٧) ، وهذه الأخيرة هى أقوى رواياته ، فهى رصد لحياة الرعاة وعمال النسيج فى منطقة كوفيليا Covilha . ولمؤلفنا بعد ذلك روايتان تجرى أحداثها خارج بلاده : « منعطف الطريق A Curva da Estrada » (١٩٥٠) و « المهمة A Missão » (١٩٥٤) ، الأولى صور فيها ماوقع فى إسبانيا بعد إعلان الجمهورية فى سنة ١٩٣٠ من اضطرابات سياسية كانت ممهدة للحرب الأهلية الإسبانية الناشبة فى ١٩٣٦ ، والثانية تجرى فى فرنسا تحت الاحتلال النازى وحركة المقاومة الفرنسية بين ١٩٤١ و ١٩٤٤ . وفى هذين العملين لايتحدث فيريرا دى كاسترو – كما فى رواياته السابقة – عن حياة الكادحين المقهورين ، وإنما عن صراع الإنسان مع نفسه حينما يجد نفسه تحت ضغوط الظروف السياسية مضطراً لاتخاذ قرار صعب . وقد خاض دى كاسترو مجالات

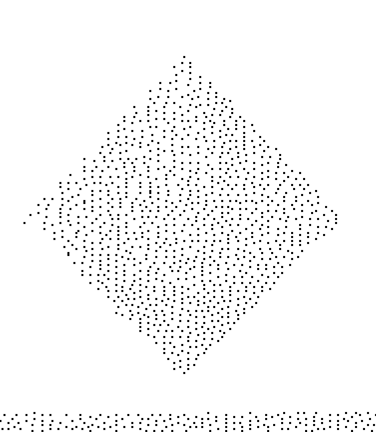
أخرى غير قصصية بحكم رحلاته الكثيرة وتجارية الفنية وقدرته الصحفية وخياله الخصب واهتمامه بسائر الفنون ، وظهر ذلك فى عدد من مؤلفاته ، منها « عوالم صغـيرة وحضـــارات قديمة Pequenos Mundos exelhas Civilizacões ، (١٩٣٧ – ١٩٣٨) و « جولة حـــول العـــالم A Volta as Mundo ، (١٩٤٤) و « عجائب العالم الفنية As Maravilhas Artisticas do Mundo ، (١٩٥٧ – ١٩٦١) . وكانت مؤسسات عديدةفى البرتغال وخارجها ترشحه لجائزة نوبل ، ولكنه كان دائماً مصراً على رفض هذا الترشيح .

ويشبه هذا الكاتب فى تنوع اهتماماته ميغيل تورغا Miguel Torga (وهـو الاسم المستعار الذى كان يوقع به ، واسمه الحقيقى هو ألفريدو روتشا Alfredo Rocha) ولد سنة ١٩٠٧ وبدأ حياته فى قلمرية ممارسًا طبيًا ، وكان فى شبابة منتميًا إلى جماعة الشعراء الذين ينشرون إنتاجهم فى صحيفة « الحضور Presença (١٩٢٧ – ١٩٤٠) كما كان ينشر فى الصحيفة التى أنشأها بالتعاون مع زميل له هو برانكينيو دى فونسيكا ، وهى « علامة Sinal ، وفى سنة ١٩٣٠ قطع صلته بصاحبه وبدأ ينشر فى مجلات أخرى مثل « مجلة البرتغال Revista de Portugal (١٩٣٧ – ١٩٣٨) ، وهو كاتب غزير الإنتاج متنوع الجوانب ، فقد نشر ثلاث عشرة مجموعة شعرية وأربع مسرحيات وعشر أعمال روائية ومجلدين فى أدب الرحلات . وابتداءً من سنة ١٩٤١ شرع فى كتابة يومياته التى كان يصدر منها مجموعة كل ثلاث سنوات ، وتتضمن كل مجموعة خليطاً من القصائد والمقالات القصيرة والتعليقات . وأهم دواوينه الشعرية « كتاب أيوب الآخر O Outro Livro de Job ، (١٩٣٦) و « قـــصـائـــد Odes ، (١٩٤٦) و « أورفيوس المتمرد Orfeu Rebelde ، (١٩٥٨) وشعره شعر احتجاج ورفض

للوجود كله : لصراع الإنسان وسرعة انقضاء الحياة ، ولكفاح « سيزيف » أى لجهد الإنسان الذى لا ينتهى من أجل تحقيق ما لايصل إليه أبداً . وأهم أعماله النـــثرية « حــشـــرات Bichas » (١٩٤٠) وجنـى الـــعـنب Vindima (١٩٤٥) و Portugal (١٩٥٠) . وأكثر أعماله شهرة هى المجموعة الأولى « «حشرات » التى تتضمن قصصاً قصيرة يدور معظمها حول الحيوانات التى أضفى عليها الكاتب حياة ومشاعر إنسانية معالجاً دورة الحياة من الميلاد حتى الموت . ويغلب على روايتيه الآخـريين « جنى العنب » و « البرتغـال » شعور اليأس والتـشاؤم والاستسلام للقدر . ومن أعماله الآخرى رواية تعد ضرباً من السيرة الذاتية هى « خلق العالم A Criacãs do Mundo » (١٩٣٧ – ١٩٣٩) وكذلك « أغانى الجبل Cantos da Montanha » (١٩٤١) ثـم « أغـانى الجـبـــل الجــــديـــدة Novos Cantos » (١٩٤٤) ، وهما مجموعتان من القصص القصيرة يصور فيها صعوبة الحياة فى الإقليم الذى كان مسقط رأسه وهو « ما وراء الجبال Trás - os - Montes » فى شمال شرقى البرتغال .

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٢٠٠٢ / ١٥٩٣٥



كانت بداية الأدب البرتغالي قوية بما فيها من تنوع وفحولة وإن اتسمت بما تكون عليه البدايات دائما من خشونة وبداوة ، فقد ولد في دفء احتكاكه بالأدب العربي الأندلسي الذي أثري لغته الوليدة ووسّع مجالاتة التعبيرية ، واستفاد من تجربة الأدب الإسباني : القشتالي والجليقى الذى كان شقيقًا له ومقاسمًا إياه فيما غذاه من روافد عربية ، ثم كان وعي الشعب البرتغالي المتزايد بشخصيته هو الذي جعل هذا الأدب يمضي شيئًا فشيئًا في طريق الاستقلال بعد أن قدرله حظ من النضج واستوي على ساقه .

علي أن القرن السابع عشر لايكاد يهل حتي يدخل هذا الأدب في فترة من التراجع والركود تستمر خلال القرن التالي وشطر من القرن التاسع عشر أيضا .

